كتاب الهلال ١٠ قروش



سلسلة ثقافية شهرية

ابوذر الغفاري
الاشتراكي الزاهد

عبد الحميد جوده السحار

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير رجاء النقاش

العدد ١٧٨ رمضان ١٣٨٥ - يناير ١٩٦٦

No. 178 — Janvier 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

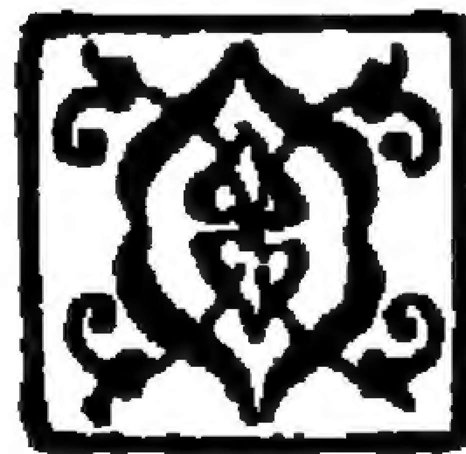
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) في الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى - فى السودان جنيه سوداني في سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا - فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٥٠٠ مليم - فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف - فى باقي انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنـة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة

الفنان حلمي التوني

أبـو ذر
الغفاري

الاشتراكي الزاهـد



تأليف

عبد الحميد جودة السحـار



دار الهـلال

تقـــديم

للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

هو كتاب نفيس ، يعرف القارىء بشخصية صـــحابى زاهد جرىء لا يبالى فيما عرفه من الحق لومة لائم ، وقد كفر بالاصنام قبل أن يؤمن بالنبى ، وعرف الله بعقله قبل أن يعرفه من وحى الرسالة ، ولازم النبى فى مجلســـه وغزواته واقتدى به فى تقشفه وتقواه ، وصار بعده يزجر الناس عن الكنز ويذمه ويدعوهم الى بذل المعروف ووصل ذوى القربى والاحسان الى الجيرة والاخوان ، واتقاء الله فى كل حال ، ويحمل على معاوية وهو على الشام حتى ضاق به صدرا ، فبعث به الى عثمان فأخرجه الى الربذة وأجرى عليه فيها عطاء كافيا فابتنى له مسجدا وظل يتعبد فيه ويعظ الناس حتى وافاه الاجل وصدق فيه قوله عليه الصلاة والسلام « يرحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده »

وقد مهد الاستاذ عبد الحميد السحار ، مؤلف الكتـــاب لترجمة أبى ذر ، بفصل طويل فى الاشتراكية فى الاسلام تناول فيه بايجاز شديد مذاهب الاقتصاد الحديثـــة فى أوروبا واستطرد من هذا الى بيان الفرق بين الاشـــتراكية فى الاسلام والاشتراكية الحديثة فى صورها المختلفـــة

وتكلم عن موارد بيت المال من خراج وجزية وزكاة وفيء وغنيمة وعشور ، وكيف كانت تنفق الامـــوال ، وبين أعطيات المسنين والمواليد والمرض والمتعطلين أو المتبطلين وغيرهم ، وهو بحث أحسب أن القراء يوافقونى على القول بأنه يجيء في أوانه وهو لا يغنى عن سواه ولكنه يفتـــح الباب لاستيفاء الدرس وينبه الاذهان الى امكان الانتفـاع بهذا النظام الحكيم الذى أوجده الاسلام ..

أما القسم الاكبر من الكتـــاب فترجمة لابى ذر ، وهى قصة ممتعة وان كان ينقصها الاشباع ، وأكبر الظـن أن الاضطرار الى الاقتصاد على عدد معين من الصـــفحات هو الذى أدى الى هذا النقص ..

واستأذن المؤلف الفاضل فى ملاحظة :

وتلك أنه كان يحسن أن يخلى كتابه من روايات غـــير صحيحة مثال ذلك ما أورده من أن النبى عليه الصـــلاة والسلام أمر أبا ذر ذات ليلة أن يدعو اليه أصحابه ففعل ودخلوا على الرسول وكانوا قرابة ثلاثين رجلا ، فوضـع لهم الرسول صحفة فيها صنيع من شــــعير ووضع يده عليها ودعاهم أن يأخذوا باسم الله ، فأكلوا منهـا ما شاءوا ثم رفعوا أيديهم فكانت الصحفة حين فرغوا مثلهـا حين وضعت الا أن فيها أثر أصابع ، أى أنها لم تنقص شـــيئا وظلت ممتلئة ..

ولا أحتاج أن أقول ان النبى لم يكن نبيا بمعجزات كهذه وانما كان نبيا رسولا لما بعث به الله من دين الحق ، والله تعالى يقول فى سورة الاسراء :

« وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون »

وفى سورة العنكبوت :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انمـا الايات عند الله وانما أنا نذير مبين » ..

وفى سورة الرعـد :

« ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، انما أنت منذر ولكل قوم هاد » ..

وفى سورة الاسراء أيضا :

« قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » ..

وفى الكتاب أيضا أقوال معزوة الى النبى عليه الصلاة والسلام تروى ولكنها غير ثابتة والارجح أنها غير صحيحة

مثل عدد الانبياء وعدد الرسل الذين بعثوا وعدد الكتب التى أنزلت وما يجرى هذا المجرى والله تعالى يقول: « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » ، وعندى أنه لو خلا الكتاب من هذه الروايات لما نقص شيئا بل لكان أحرى أن تزيد بذلك قيمته

وفيما عدا ذلك أود أن أثنى على المؤلف الفاضل وكتابه وأحض على اقتنائه ، فليس الخلفاء والولاة والقواد والملوك هم وحدهم الجديرون بالترجمة ، ومما يضاعف فضل المؤلف أنه كما أسفلت اثار بحثا يحسن التوسع فيه لامكان الانتفاع بما نخرج به منه فى هذا العصر الذى تصطرع فيه المذاهب ويضطرب العالم اضطرابا لم يسبق له نظير فى التاريخ ..

وقد أحوجت الحرب كل أمة الى النظر فى شئونها ومحاولة تنظيمها على نحو جديد يكون أعدل وأكفل بازالة الفوارق الكبيرة بين الطبقات وتحرير الخلق من رق الفاقة والمرض والبطالة وما الى ذلك ..

مقـــدمة

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم

وبعد ، فلم تبق اثارة من ريب لدى الباحثين الأحرار، فى ان الاسلام قد تضمن من المبادىء السامية ، مايجعله أقسط ميزان تقوم عليه طبقات الناس ، وتنتظم أمورهم. ومن المشاهد انه كلما ارتقى العقل الانسانى الحاضر فى فهم حقائق الحياة ، واكتشاف خوافيها ، واقتراح شتى الحلول لما يواجه من مشاكلها ، عدنا نحن المسلمين الى ديننا ــ بعد رؤية هذه الحلول ــ عودة المرء الذاهل الى ماضيه الحافل ، وقد اتصل بهذا الماضى فجأة ما أشرقت به صفحته ، وتجددت به ذكرياته ، وسرت فيه كرة أخرى حياته ، لأن الخير الذى يبرق خلال طائفة من مناهج الاصلاح المعاصر ، انما هو بعض ميراثنا ،

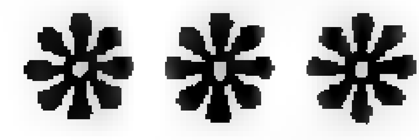
فيما آل الينا من دين عظيم ، « ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

وبين يدى القارىء بحث علمى دقيق فى الاشتراكية الاسلامية ، يجلو هذه الحقيقة ، ويؤكدها ، ويعرض فى صدق وانصاف للمذاهب الاشتراكية الحديثة التى تمخض عنها عهد اليقظة الأوربية الأخيرة ، فيمحص خيرها من شرها ، ثم يحكم على هذا التفكير الأوربى ، بما له وما عليه ، على حد قول القائل :

وقد يجىء بخلط فالنحاس له ... وللأوائل مافيه من الذهب

ومن المهم ان يعرف الناس ان الاسلام لا يحارب الثروات العامة أو الخاصة ، وانما يحارب تجرد بعض الناس من الثروة على حساب تضخمها فى ناحية أخرى ، وان الاسلام لم يقرن الغنى بحق أدبى ولا بحق معنوى ، وفى آيات القرآن ونصوص السنة وأعمال الراشدين من الخلفاء ما أشار اليه المؤلف الباحث ، بل ما فصل الكثير منه تفصيلا ، وخصوصا فى حياة أبى ذر الصاحب الأمين لرسول الله . وقد وفق المؤلف الى ايضاح مواقف أبى ذر ، وأظهر بواعث الايمان الخالص فى حياته المليئة بالكفاح ، والنصح لدين الله ، والحدب على جمهور

المسلمين ، وشرح وجهـة نظره رضـوان الله عليه فى الاعتراض على مظاهر الترف ، وأخلاق الرفاهية التى كانت قد بدأت تعمل عملها بين المسلمين



ونحن يسرنا أن يتجه الشباب المثقف هذه الوجهة الصالحة ، ونهنىء المؤلف على هـذا الانتاج الطيب ، مقدرين جهـده الصادق فى مصـادر بحثه المتشعبة ، مؤملين أن يكون له فى نفوس القارئين أثره المنشود



بصيص من نور

عن عبد الله بن الصامت قال : قال أبو ذر : « لقد صليت يا ابن أخى قبل أن القى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين » . قال : فقلت : « لمن ؟ » قال : « لله » فقلت : « فأين تتوجه » فقال : « حيث وجهنى الله عز وجل »

اجتمع رؤساء قبيلة غفار يتشاورون فى أمرهم ، فقد احتبس الغيث عنهم ، فشح الخير ، وهزلت الأنعام ، وحاق الضيق ، وتساءل الرجال : لم ودعهم الههم مناة وقلاهم ؛ على الرغم من انهم توسلوا اليه أن يمطروا ، ونحروا له الجزور قربانا وزلفى ؟ لقد انصرم أوان المطر ، فما اكفهرت السماء ولا تلبدت بالغيوم ، ولا سحت ، بل كانت عصية الدمع ، صافية الأديم

ترى هل ضلوا السبيل فحاق بهم غضب الاله ؟ ولكن علام يغضب ، وقد أهرقت له الدماء اكراما وتعظيما ؟ وفكر الرجال ما شاء لهم أن يفكروا ، وقلبوا وجوه الرأى ، ولكن ما يستطيع الرجال فى أمر السماء ؟ ومن

ذا يستطيع أن يزجى السحاب وينزل من السماء ماء ، فيحيى به الأرض بعد موتها الا مناة الههم القادرالعظيم؟ فما عليهم الا أن يخرجوا جميعا ، رجالا ونساء ، حاجين متوسلين ضارعين ، راجين من منـــاة عفوه وغفرانه ، داعين اياه خوفا وطمعا ، لعله يتداركهم برحمته ، فيرسل الرياح مقلة سحابا ثقالا فيحيى به الأرض بعد موتها ، ويبدل بؤسهم رخاء ، وضيقهم فرجا ، وعسرهم يسرا

تجهزت القبيلة للخروج الى مناة ، ونهض القوم الى رواحلهم ، وتسنم أنيس راحلته وزجرها ، فنهضت ، وهمت لتندفع مع القافلة صوب ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين المدينة ومكة ، حيث ينتصب صنم مناة ، ولـكنه تلفت حوله فلم يقع بصره على أخيه أبى ذر بين القوم ، فأناخ راحلته ، واندفع صوب الدار يهتف : « جندب .. جندب » . ثم دخل الدار ، فألفاه مضطجعا لا يريم ، فقال له :

ـ ألم يقرع سمعك صوت المنادى يدعو للخروج ؟

ـ بلى ، ولـكننى أشعر بثقل فى جسمى ، وكره فى الحج الى « مناة » هذا

ـ صه واستغفره . ألا تخشى أن يسمعك ، فينزل

لعنته عليك ؟

ـ أو تظن انه يسمعنا ويرانا ؟

ـ مابك اليوم ؟ أمسَّتك جنة أو أصابك مرض ؟ هيا تب اليه ، عسى أن يقبل توبتك ..

وتململ أبو ذر فى مضجعه ، فقال أخوه :

ـ قم .. قم ، فقد فصلت العير وسبقنا القوم

وما زال به حتى خرج معه ، وركب أنيس راحلته ، وكذلك فعل أبو ذر على كره منه . والتفت أنيس الى أخيه وقال :

ـ اياك أن تجهر برأيك هذا ، والا أيقن القوم أنك السبب فى نقمة مناة عليهم ، ومنع الغيث عنهم ، فيعذبونك

وأخذ أنيس يذكر لأخيه فضل «مناة» على العرب ، ويعـدد مناقبه . ولم يك أبو ذر يسـمع له الا بأذن معرضة ، فقد كان شارد النفس ، ساهما مفكرا

وبعـد أيام أشرفت العير على منـاة ، فأناخ القوم رواحلهم ، واستصحبوا عتائرهم (ذبائحهم) ، وأقبلوا على ربهم بقلوب خاشعة مهللين معظمين داعين ، ونحروا عتائرهم ، فتدفق الدم الأحمر القانى الذى يحبه الاله غزيرا على الأرض ، واستمر أبو ذر يرقب ما يحدث ،

وينقل عينه بين مناة وقومه ، فيعجب لقومه وغفلتهم ، كما يعجب لذلك الاله الساكن ، الذى لا يشعر بما حوله ، ولا يسمع تلك الأدعية الحارة الصادرة من قلوب قانتة ، فكيف له أن يستجيب لها ، وأن يعمل على تحقيقها ؟ ..

وأقبل الليل فبسط أرديته السود على مناة وعباده ، وبات يمد فى هذه الأردية حتى غمر كل شىء ، وحجب كل شىء ، الا تلك النجوم التى تلمع فى السماء ، وهذه النيران الخافتة التى شبتّها القوم ليتبين كلٌ مكانه ، وليعرف كلٌ مقامه ، وتكونت حلقات من السامرين ، وانضم أبو ذر الى حلقة جلها من المسنين، ودار الحديث حول الآلهة وعظمتها ، هذا يتكلم عن مناة ، وهـذا يحدث عن الفلس ، وهذا يذكر طرفا عن اللات والعزى بنات الله وشفاعتهما اليه ..

وحدث رجل عن صنم سعد ومكانته ، فقال آخر :

ــ هل وصل الى سمعكم خبر ذلك الرجل الذى شتم سعدا ؟ ..

فقال الجميع باهتمام : لا ، وماذا قال ؟

ــ أقبل رجل من ملكان بابل له ليقفها على سعد ،

يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت ، فذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه . وأسف الرجل ، فتناول حجرا ، فرماه به ، وقال : لا بارك الله فيك من اله ، أنفرت علىَّ ابلى .. ؟ !

ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه وهو يقول :

أتينـا الى سـعد ليجمع شملنـا
فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد
وهـل سـعد الا صخرة بتنوفة
من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد

فقال أحدهم : قد كفر الرجل والله . وما حدث له ؟

قال المحدث : لا شىء

وأطرق الجمع ساهمين الا أبا ذر ، فقد ملأ الحديث قلبه اطمئنانا وثباتا ، وشجع الحديث القوم على الخوض فى الأصنام ، فقال أحد السامرين : هل بلغ سمعكم رفض عدى بن حاتم عبادة الفلس ، وعبادة الأصنام ، وتنصره ؟ ..

فقال الجميع : لا ، وما حدث ؟

فقال المحدث : أخذ صيفى سادن الفلس ناقة لامرأة

من كلب ، من بنى عليم ، كانت جارة للشريف مالك بن كلثوم ، فانطلق السادن بها حتى أوقفها بفناء الفلس ، وخرجت جارة مالك ، فأخبرته بذهاب السادن بناقتها ، فركب فرسا عريا ، وأخذ رمحه ، وخرج فى اثره ، فأدركه وهو عند الفلس ، والناقة موقوفة عنده (أى الفلس) . فقال مالك للسادن : خل سبيل ناقة جارتى ، فقال السادن : انها لربك ، قال مالك : خل سبيلها ، قال السادن : أو تخفر الهك ؟! فقابله مالك بالرمح ، فخلى السادن عقالها ، وانصرف بها مالك . وأقبل السادن على الفلس ، ونظر الى مالك ورفع يده وقال وهو يشير بيده اليه :

يارب ان مالك بن كلثوم
أخفرك اليوم بناب (١) علكوم (٢)
وكنت قبل اليوم غير مغشوم

وكان بهذا يحرض الفلس على مالك ، ويطلب منه أن ينزل عليه نقمته وعقابه . وكان عدى بن حاتم جالسا عند الفلس هو ونفر معه ، فرأى وسمع ، فقال عدى : « انظروا ما يصيب مالكا فى يومه هذا » . فمضت له

(١) ناقة (٢) حسن

أيام لم يصبه شيء ، فرفض عدى عبادته وعبادة الأصنام وتنصر ..

وأطرق الجمع ثانيـــة ، وغشى وجوههم الاظلام ، وشعر أبو ذر بطمأنينة تشيع فى نفسه ، ووقع هـذا الكلام فى نفسه موقع الماء من ذى الغلة الصادى

وانتثر عقد السامرين ، واضطجعوا حول منـاة ، وأقبل سلطان الكرى ، فمس جفون الجميع فنـاموا وأمعنوا فى الرقاد الهادىء المطمئن ، الا أبا ذر ، فانه ضم يديه الى صدره ، وثبت عينيه فى السماء ، وأخذ يفكر فى حديث القوم وفى الأصنام ، فألفى نفسه ينكر الأصنام وقدرتها ويكفر بها ، وتمتم : « وهل مناة الا صنم لايدعو لغى ولا رشد ؟ » . وجال فى نفسه خاطر، فنهض من مضجعه خفيفا ، وجعل يمشى حتى انتهى الى مناة ، فتطلع اليه فوجده ساكنا لايحس شيئا ، ولا يرى شيئا ، فمال وتناول حجرا فرماه به ، فألفاه مغرقا فى البله والوجوم ..

فقال له : انك عاجز لا قادر ، مخلوق لا خالق ، لا حول لك ولا قوة ، فعلام تعبد ، ولم تنحر لك العتائر، وتقدم اليك القرابين ؟ ! ان قومى فى ضلال مبين

وعاد أبو ذر الى مضجعه خفيفا ، هادىء النفس ، مطمئن البال ، فأطبق جفنيه ، وراح فى سبات عميق

وتنفس الصبح ، وأطلت الشمس من خدرها ، فبعثت نورها ساطعا ، ودبّت الحياة فى عبّاد مناة ، فهبُّوا من نومهم ، وظل مناة مغرقا فى سكونه ، ثابتا فى مكانه ، لا يحس شيئا ، ولا يرى شيئا ، ولا يسمع شيئا ، وابتدأ القوم يطوفون حوله متبركين قبل رحيلهم ، الا أبا ذر ، فقد كذب وتولى ، وأتى راحلته فامتطاها ، وشرد ذهنه يفكر فى هذا الكون العريض : رفع رأسه الى السماء ، فراعته عظمتها واتساع رقعتها ، فراح يفكر كيف رفعت ، وما بناها ؟ وتطلع الى الشمس تطلعه الى شىء جديد ، فألفاها تسبح فى فضاء واسع لا نهائى ، فراح يفكر كيف تبزغ من خدرها ، فيشرق وجهها ، ثم تدرج فى منازلها ، حتى تستوى فى كبد السماء ، ثم تنحدر حتى تغوص فى الأفق وتختفى ، وكيف يتبعها ليل مدلهم ، يمزق سواده الحالك تلك النجوم الزهر ، التى ينبعث وميضها هادئا خافتا .. ظل غارقا فى تأمله وتفكره ، تأملا وتفكرا كانا طليعة لكتائب اليقين التى ستخذل أمامها فلول الشك فى نفسه

وانتهى القوم من طوافهم ، واتجهوا الى رواحلهم ، وأقبل أنيس وجعل يتفرس فى وجه أبى ذر،كمن يحاول أن يستشف ما فى نفسه ، فوجده غائصا فى لجج من الأفكار ، فتركه ولم يحادثه . وانطلقت القافلة عائدة الى غفار ، واستمر أبو ذر غارقا فى بحر من التأملات ، حتى وصلت القافلة الى فج ، فنظر حوله ، فوجد جبالا، ففكر كيف نصبت وما نصبهــا ؟ ثم أطرق ينظر الى الأرض ، ففكر كيف سطحت وما طحاها ؟ وتفاعلت الأفكار فى رأسه ، ودبت الحياة فى نفسه ، وشعر بأشعة من الهدى تتغلغل فى نفسه ، فتمحو فلول الشك التى سكنت فيها أعواما

وبلغ القوم غفارا ، فنزلوا عن رواحلهم ، واتجه أبو ذر الى غفار ، فاذا الدار ساكنة سكون الرموس ، فقصد الى مضجعه ، وحاول أن ينام ليستريح من وعثاء الطريق، ولكن النوم استعصى عليه ، وأدركه الأرق ، وجعل سيال الفكر ينتقل به من مكان الى مكان ، وأخذ يفكر فيمن رفع السماوات ، وبسط الأرضين ، ثم أخذ يفكر فى نفسه وفيمن خلقه ، وجعــل له عينين يرى بهما ، ولسانا ينطق به ، ونفسا تلهمه الخير والشر ، والتقوى

والفجور . واعتدل أبو ذر فى مضجعه ، وقال فى نفسه : « ان مبدع السماء لاشك أكبر من السماء ، وخالق الانسان أعظم من الانسان . ان خالق هذا الكون عظيم متعال، وهو أحق بالعبادة من مناة ، ومن اللات والعزّى، ومن اساف ونائلة وسعد ، بل هو أحق بالعبادة منهم مجتمعين ، فهو الخالق البديع المصور القادر ، وهى صخور لا حول لها ولا سلطان » . وأحس بالسرور يسرى فى قلبه ، واليقين يمزق تلك الغشاوة التى نسجتها أيدى الشك على عينيه ، فخر ساجدا لله رب العالمين ..

ولقد كان أبو ذر ظمآن الى اليقين ، حتى اذا ظفر به أصبح مبرود الغليل ، وعاد الى مضجعه ونام ، فانعكس على وجهه شعاع من النور السماوى ، تمازجه نفثة من الروح الالهى ، أنار الله بصيرته ، وأضاء سريرته

انبلج الفجر ، ومس بأنامله الرقيقة كل شىء حوله ، فنهض أبو ذر خفيفا ، ورفع يديه الى السماء ، وجعل يدعو الله بصوت خاشع قانت عذب حنون . ودخل أنيس ، فوجد أخاه قائما خاشعا ، فهمّ أن يحادثه ويحاوره ، ولكنه أخذ بما رأى وسمع ، فوقف يرقب

أخاه ، وأخيرا جمع شتات نفسه وقال : « ما تفعل ؟ »

فالتفت أبو ذر الى مصدر الصوت ، فوجد أخاه يدرج نحوه ، فقال : « أصلى .. »

ـ لمن ؟

ـ لله ..

ـ أى اله ؟ ان الصلاة لا تجوز الا هناك عند نهم أو مناة ..

ـ لا أصلى لمناة ، ولا لصنم سواه ..

ـ لمن تصلى اذن ؟

ـ لقد وجدت فى الطبيعة التى لا تحد ولا تحصر آية أرشدتنى الى اله ليس كآلهتكم ، فهو عظيم قادر ، لا مطمع فى أن يرقى اليه العقل ، أو يتناوله بالدرس والبحث والتحليل ، انما هو قوة آجلها ولا أحيط بها

ـ أتصلى لاله لا تجده ولا تراه ؟

ـ ان لم أجده فقد وجدت آيته ..

ـ ان هذا لشىء عجاب ، تترك الآلهة الماثلة أمام عينيك ، والتى ان أردتها وجدتها ، وان دعوتها كانت قريبة منك ! ؟

ـ ماهذه الآلهة الا صخور لاتفقه شيئا ، ولا تملك

نفعا ولا ضرا

ـ أتسفه عقولنا وعقول آبائنا ؟ ..

ـ وما ذنبي يا أنيس ان كان آباؤنا فى جهالتهم يسهون ؟ ان ديننا يا أنيس واه أوهى من خيوط العنكبوت . تصور ان أحدنا اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذه ربا ، وجعل الثلاثة الأخرى أثافى لقدره . تصور حجرا يصبح ربا ان أعجبنا ، ويصبح حاملا للقدر ان لم يرق أعيننا . ان هذا عجيب

ـ ان ما نفعل من ذلك فى أسفارنا انما هو للاقتداء بما نفعل عند الكعبة ، وان الحجر المختار لا يعبد لذاته ، وانما يعبد على انه يقوم مقام اساف ونائلة ، وتلك الأصنام المنصوبة بالكعبة

ـ ما اساف ونائلة الا زانيان ، أتحب أن تعبد زانيا ؟

ـ ما هذا يا أبا ذر ؟

ـ أجل‌هما زانيان .. فقد كان اساف يعشق نائلة فى أرض اليمن ، فأقبلا حاجين فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ، ففجر بها فى البيت ، فمسخا ، فأصبح الحجاج فوجدوهما ممسوخين ،

فوضعوهما عند الكعبة ، ليتعظ الناس بهما ، فلما طال مكثهما عبدا معها .. هذه هى آلهتكم ..

ــ وما تقول فى تلك الآيات التى صدرت عنها ؟

ــ لم يصدر عنها شيء ، فهى لا حول لها ولا قوة . وكل ما حدث فهو من عند الله ، ونسب الى تلك الآلهة بهتانا وزورا . قد خرجنا بالأمس حاجين الى مناة ، راجين منه ان يزجى الينا السحاب الثقال ، وذبحنا عنده الجزر قربانا وزلفى ، فما الذى فعله ؟ لا شيء ، لا لأنه غاضب علينا ، أو حانق لذنب اقترفناه ، أو لواجب قصرنا فيه ، بل لأنه لايستطيع أن يفعل شيئا

ــ كفى! كفى! كدت أركن اليك ، وأتشكك فى آلهتنا

ــ هذا ما كنت أبغى . انى يا أنيس لأرجو أن تسأم هذه الأصنام كما سئمتها ، وأن تتجه فى دعائك الى الله فاطر السماوات والأرض

ــ أمن السهل أن نخلع ديننا ونلقى به كما نلقى بالثوب الخلق ؟

ــ نعم يا أنيس ، من السهل أن نفعل ذلك اذا كان ديننا كالثوب الخلق

ودخلت أمهما عليهما ، فالتزما جانب الصمت ،

فقالت لهما : « ما رأى ولدىَّ ؟ »

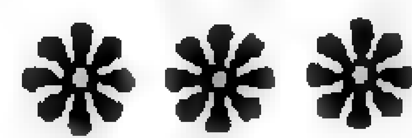
فقال أنيس : « فيم ؟ »

فقالت الأم : فيما وصلنا اليه من الحال ، فقد انجبس الغيث عنا ، وأجدبت الأرض ، وأصبحنا فى ضيق شديد ..

فقال أنيس : الرأى ما ترين ..

فقالت : أرى أن ننزل على خالكما ، فهو ذو هيئة وذو مال ..

فقال أبو ذر : الرأى ما ترين ، الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ..



خرج أبو ذر وأنيس وأمهما قاصدين خالهما ، وكان أبو ذر يتفكر ويتأمل فيما حوله ، ولا يمد طرفه الى شىء ، حتى يرى فيه عظمة الخالق ، فيزداد يقينا على يقين . مضوا ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد ، وطال بهم السفر ، وكان أبو ذر لايسمع سوى صوت نفسه ، وأنات المطايا التى كانت ترسلها كلما أحست التعب ، وحنت الى الراحة . وتكشفت لهم أرباض مكة ، فزجروا مطاياهم يستحثونها على الاسراع ، فأغذت

السير ، كأنما كانت تفقه أن مرحلتها هذه هى مرحلة النصب الأخيرة ، وبعدها الراحة والدعة والهدوء

ونزل أبو ذر وأنيس وأمهما على خالهما فنزلوا على الرحب والسعة ، وأكرم الرجل وفادتهم ، وأحسن اليهم. وطال مقامهم وطاب ، وصاروا فى لين من العيش ، وغدت حياتهم سهلة ميسورة ناعمة ، وأصبحت بشرا متصلا ، ونعيما مقيما . ورأت القبيلة عطف الخال وحدبه على أنيس وأبى ذر ، وانزالهمـــا من نفســه منزلة ولديه ، فحسدوهما ، واجتمعوا وفكروا فى أن يكيـــدوا لهما كيدا ، فينزعوا من قلبه الحب ، ليخلو لهم وجهه. وطالت محاورتهم ، وطال تداولهم ، وأخيرا قر رأيهم على أمر ، واختاروا رجلا منهم ليقوم بتنفيذه

دخل الرجـــل على خـــال أنيس وأبى ذر ، وجلس وأطرق ، فقال الخال : خيرا ؟

فقال الرجل متكلفا الحزن والاشفاق ، متصنعا التألم :

ـ قد جئت فى أمر ذى بال . ولولا محبتنا لك واعزازنا اياك ، ما فكرنا فى أن نفضى اليك بشىء ، أو نعلمك شيئا ، ولكن دفعنا اخلاصنا لك ، واجلالنا اياك ، أن نزيح الغشاوة عن عينيك ، حتى ترى بعض ما يجرى

خلفك ، فقد أحزننا وحز فى نفوسنا ، ان نرى مقـابلة الاحسان بالاساءة ، والجميل بالنكران

شعر الخال بأن وراء هذا الحديث ما وراءه ، وأحس بالقلق يسرى فى نفسه ، فقال :

ـ أفصح ! ما هناك ؟

ـ أنيس ...

ـ ما به ؟

ـ اذا ما خرجت جلس الى نسائك

ـ هذا كذب وبهتان !

ـ كنا نتمنى أن يكون كذبا وبهتانا ، ولكنها وياللأسف الحقيقة بعينها

ـ وما برهانك ؟

ـ سل من شئت ، فالقبـيلة كلهـا لاحظت ذلك ، وعلمت به .. أتحب أن تسمع هذا من أفواه غيرى ؟

ـ لا .. وكفى !

وأطرق المطعون فى كرامته يفكر ، وشعر بغيرة لاذعة محرقة تأكل قلبه ، وانسل الآخر من الحجرة ، كما تنسل الأفعى ..

وحاول الرجل أن يردّ الى النفس دعتها ، وطمأنينتها ،

فلم يوفق ؛ ووقع فى نفسه حزن ثقيل ، وكان يتجرع كأس الغضاضة اذا أمسى ، ويتجرعها اذا أصبح وكان اذا قابل ابنى أخته ازور عنهما برغمه ، وأسبغ على الدار رداء من الوجوم . وفى ذات يوم رأى أبو ذر على وجه خاله شيئا غير ما كان قد تعود أن يراه . رأى قلقا وحيرة ، وهمًّا مقيما ، فسأله :

ــ ماخطبك ؟ انى لأنكرك منذ أيام . أراك معرضا عنا ، قليل الحديث ، طويل التفكير

ــ لا شىء ...

ــ بل هناك شىء ، فما هو ؟ لعلى استطيع أن أخفف عنك بعض ما يهمك ، أو أشاطرك ما يقلقك

ــ قال لى قومى كلمة تملأ الفم

ــ وما قالوا ؟

ــ قالوا لى : ان أنيسا أتى أمرا ادًّا ..

ــ وما زعموا ؟

ــ قالوا : اذا خرجت عن أهلى ، خلفنى اليهم أنيس

فظهر الغضب على وجه أبى ذر وقال :

ــ أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ، ولا جماع لنا فيما بعد

انبلاج الفجر

جلس أنيس وأبو ذر أمام دارهما بغفار ، وأقبل عليهما رجل ، فسلم وجلس ، فسأله أبو ذر :

ـ من أين ؟

ـ من مكة

ـ وكيف حالها ؟

ـ ظهر بها رجل يزعم انه نبى يأتيه الخبر من السماء

ـ وما فعلوا به ؟

ـ كذبوه وآذوه ، ومنعوا الناس عنه ، فلا يمر به أحد الا حذروه اياه

ـ ولم لم يستمعوا اليه ؟

ـ كيف يستمعون الى من عاب دينهم ، وسفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، وسب آلهتهم ؟

ـ أو قد فعل هذا ؟

ـ أجل ، ولقد جعل الآلهة الها واحدا ، ان هذا لشيء عجاب ..

فأطرق أبو ذر مفكرا فى ذلك الذى جعل الآلهة الها واحدا ، ولكنه لم يجد هذا شيئا عجابا ، بل وجده ما وصل اليه هو بتفكيره وتأمله فى الكون . وطال اطراقه ، وطال صمته وتفكيره ، فنظر اليه الرجل ، فألفاه ساهما شارد الفكر ، فاستأذن وانصرف ، والتفت أبو ذر الى أخيه أنيس ، وقال :

ـ اركب الى هذا الوادى، فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم انه نبى ، يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع من قوله ، ثم ائتنى بخبره ..

تجهز أنيس للرحيل ، وامتطى راحلته ، وانطلق حتى قدم مكة ، فاتجه الى الكعبة ، وطاف بها ، وخرج فوجد جمهرة من الناس ، فسأل رجلا كان قادما نحوه :

ـ ما هنالك ؟

ـ الصابىء يدعو الناس الى دينه الجديد

فما كاد يصل ذلك الى سمع أنيس ، حتى أسرع ، فوجد رجلا يقول :

ـ الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل

عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له

فقال أحد الحاضرين : كذبت

فقال الرجل : ان الرائد لايكذب أهله ، والله الذى لا اله الا هو ، انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس عامة . والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون ، وانها الجنة أبدا ، أو النار أبدا

فقال أحدهم :كيف نبعث بعد أن نكون عظاما ورفاتا ؟

فقال الرجل : « وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ! قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رءوسهم ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا »

وقف أنيس يستمع مأخوذا ، وابتدأ الناس ينفضون من حول النبى ، وقال أحدهم : « انه لكاهن »

ـ بل شاعر

ـ لا ، بل ساحر

استمع أنيس الى النبى والى قومه ، فأطرق مأخوذا ، ثم غمغم : « والله ان لقوله لحلاوة . والله انه لصادق ، وانهم لكاذبون »

وركب راحلته ، وراح طوال الطريق يفكر فى محمد ، ويعجب من أمره حتى بلغ غفارا ، فقابل أخاه أبا ذر ، فسأله هذا متلهفا : « ما عندك ؟ »

ــ لقيت رجلا يزعم ان الله عز وجل أرسله على دينك. ورأيته يأمر بالخير ، وينهى عن الشر

ــ ما يقول الناس فيه ؟

ــ يقولون انه شاعر وساحر وكاهن، وما هو بشاعر، فقد عرفت الشعر كله ، وقد وضعت قوله على أقراء الشعر ، فوالله ما يلتام . وما هو بساحر ، فقد رأينا السحار وسحرهم ، ونفثهم وعقدهم . وما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه

ــ وما يقول ؟

ــ يقول قولا عجبا

ــ أما تذكر شيئا مما يقول ؟

ــ والله ان لقوله لحلاوة ، ولكنى لا أذكر منه شيئا

ــ لم تشفنى من الخبر ، هل انت كافى حتى أنطلق فأنظر ؟

ــ نعم وكن من أهله على حذر ، فانهم قد شنفوا له وتجهموا

ولم يطق أبو ذر صبرا ، فحمل شنة له فيها ماء ، وامتطى راحلته ، وجعل يجد نحو مكة ، يحدوه الأمل ، وتخفق له الأمانى العذاب فى نفسه ، وتتماثل له فى شكول وألوان . واحتل الدين الجديد فكره ، وغاص فى لجج من الأفكار ، فالى أين يقصد ؟ وكيف يتصل بذلك الرجل الذى يدعو الى مكارم الأخلاق ؟ ومن يرشده اليه ؟ واذا سأل عنه ، هل يأمن أذى معارضيه ومكذبيه؟ وقر قراره على أن يقصد الى المسجد ملتمسا ذلك النبى

بلغ أبوذر مكة ، فأتى المسجد ، وراح يبحث عن ذلك الرسول ، ولكنه لم يجده ، ولم يسمع به ، فمكث فى المسجد ، وطال مكثه . غابت الشمس وأقبل الليل يمد فى ردائه الأسود ، وضرب الله على آذان أهل مكة ، وما يطوف بالبيت غير قليل . وجاء على ليطوف ، فمر بأبى ذر ، فنظر اليه ، فألفاه جالسا ، فأقبل نحوه وقال :

ـ كأن الرجل غريب ؟ قال : « نعم .. » قال : « تعال معى .. »

فانطلق على الى المنزل ، وانطلق أبو ذر معه ، وسارا صامتين ، لايسأل أبوذر عن شىء ، حتى بلغا المنزل ، فبات أبوذر ليلته ، ولما أصبح الصباح ، خرج الى المسجد

يبحث عن النبى ، لا يسأل أحدا ، ولا يخبره أحد عنه بشيء ، وطال بحثه ، وطال انتظاره ، وتصرم النهار ، وسجا الليل ، وأقبل على ومر بأبى ذر فتوقف وقال :

ـ أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟

ـ لا ..

ـ فانطلق معى ..

فانطلقا ، وسارا صامتين ، الى أن قال على :

ـ ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟

ـ ان كتمت علىّ أخبرتك ..

ـ فانى أفعل ..

ـ بلغنا انه قد خرج ههنـــا رجـــل يزعم انه نبى ، فأرســلت أخى ليكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر ، فأردت أن ألقاه

ـ أما انك قد رشدت ، هذا وجهى اليه ، فاتبعنى . ادخل حيث أدخل ، فانى ان رأيت أحدا أخافه عليك ، قمت الى الحائط ، كأنى أصلح نعلى ، فامض انت

وانطلق الرجلان ، وأحس أبوذر بالسرور يشيع فى نفسه ، فقد هداه الجد الموفق الى أحد أصفياء النبى ، وقد شاء الله له الرشد والهداية ، وان يكون من السابقين

الى الاسلام ، المقربين من رسوله ، الناشرين لدينه ، العاملين على رفعته ، ونصرته وعزه

ودخل عليٌ على النبى صلى الله عليه وسلم ، ودخل معه أبوذر ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قال :

ـ السلام عليكم (١)

ـ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . ممن أنت ؟

ـ من غِفار ..

واتصل حبل الحديث بين النبى وأبى ذر ، وتشعبت فنون القول . وأخيرا قال أبو ذر :

ـ اعرض على الاسلام ..

ـ الاسلام : أن تشهد أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة

فقال أبو ذر : أشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله

ـ يا أبا ذر اكتم هذا الأمر ، وارجع الى بلدك ، فاذا بلغك ظهورنا فأقبل ..

قالها رسـول الله رءوفا به رحيما ، ليبعد عنه أذى قومه . ولكن هل يستمع أبو ذر الى هذا ؟ وهل يرضى

(١) هذا أول سلام التقى فى الاسلام

مثل أبى ذر أن يكتم اسلامه ؟ لا والله ، فليعلنه ، وليكن ما يكون ، وليفعل به القوم ما يفعلون . ليعلنه ابتغاء مرضاة الله ، ليعلنه ولو كره الكافرون ، فيقول للرسول بلغة المعتز بدينه ، الواثق بربه :

ــ والذى بعثك بالحق ، لأصرخن بها بين أظهرهم

خرج أبو ذر قاصدا المسجد ، يملأ صدره ايمان قوى لايخشى بطشا ، ولا يهاب أحـــدا ، حتى بلغ المسجـد وقريش فيه ، فقال :

ــ يامعشر قريش ، انى أشـــهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله

هــل يسكت القوم على ذلك الذى جاء يتحداهم مستخفا بهم ، عاملا على تحقير شأنهم ، والنيل منهم ؟ لا . فليقوموا الى هذا الصابىء وليضربوه حتى يموت . فمالوا عليه وضربوه ، وأقبل العباس فأكب عليه ، ثم أقبل على القوم ، فقال :

ــ ويلكم تقتلون رجلا من غفار ، وتجركم وممركم على غفار !

فأقلعوا عنه ، وارتفع أبوذر كأنه نصب احمر ، فأتى زمزم ، وشرب من مائها ، وغسل عنه الدم ، وخرج من

الكعبة قاصدا الرسول ، فوجده عند أبا بكر الصديق :

ـ متى أنت ها هنا ؟

فقال أبو ذر : كنت ها هنا منذ ثلاثة أيام

فقال أبو بكر : فمن كان يطعمك ؟

فقال أبو ذر : ما كان لى طعام الا ماء زمزم

فقال أبو بكر : ائذن لى يارسول الله فى طعامه الليلة

انطلق النبى وأبو بكر وأبو ذر معهما ، حتى فتح أبو بكر بابا ، فجعل يقبض لهما من زبيب الطائف ، فكان ذلك أول طعام أكله أبو ذر بمكة

وانبلج صبح اليوم التالى ، فأحس أبو ذر رغبة فى الجهر باسلامه ، ولم يزده ايذاء القوم الا عزما وتصميما، فانطلق الى المسجد ، ووقف وصاح بأعلى صوته :

ـ يا معشر قريش .. يا معشر قريش ..

فتطلع الناس اليه ، والتف بعضهم حوله ، فصاح فيهم:

ـ انى أشهد أن لااله الا الله ، وان محمدا رسول الله

فزمجر القوم ، وقاموا اليه ، وأشبعوه ضربا ، فخر مغشيا عليه . وأقبل العباس يواسيه ، فقام وراح يمر بيده على وجهه وجسمه ، ثم تأوه من الألم ، ولكنه أحس راحة تشيع فى نفسه ، وتملأ جوانبه ، أنسته آلام

جسمه المبرحة ، ثم اتجه الى حيث كان الرسول الكريم ، فسلم عليه وجلس ، وأخذ بأطراف الحديث

قال رسول الله : انى قد وجهت الى أرض ذات نخل ، فلا أحسبها الا يثرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك ، لعل الله عز وجل ينفعهم بك ، وبأجرك فيهم ؟

فقال أبو ذر : نعم ، أفعل ..

وانطلق أبو ذر الى غفار ، يملأ قلبه الايمان بالله ، وبعظمة رسوله ، ويفكر فيما مر به من الأحداث حتى لقى رسول الله ، فتنبسط أسارير وجهه ، وتعلو شفتيه ابتسامة الرضا والاطمئنان ، ويحمد الله أن هداه الى الرشد ، الى دين الحق ، الى الدين الذى ترضاه النفوس الطاهرة ، الباحثة عن الهداية ، المقتنعة بما يقبله العقل ، المعرضة عما يتنافى مع المنطق وان كان فى ذلك تسفيه لأحلام الآباء ، وتحقير لمعتقداتهم . وشارف غفار فأحس بشوق للقاء أخيه وأمه ، وابلاغهما نبأ اسلامه ، فزجر راحلته يستحثها على الاسراع ، فانطلقت به ، حتى أتى أخاه أنيسا ، فقال له : « ما صنعت ؟ »

ـ انى قد أسلمت وصدقت ..

ـ أسلمت وصدقت ؟

ـ أجل يا أنيس ، انه دين الحق وانى أدعوك اليه

وراح أبو ذر يقص على أخيه ما مر به ، منذ تركه الى أن عاد اليه . فأطرق أنيس لحظة ، فرن فى أذنه ذلك الكلام الحلو ، الذى سمعه من رسول الله يوم خرج الى مكة ليستمع اليه ، فسرت فى نفسه نشوة حلوة ، فرفع رأسه ، وقال :

ـ ما بى رغبة عن دينك ، فانى قد أسلمت وصدقت

ـ هيا الى أمنا نبلغها النبأ ...

فنهضا ، واتجها الى أمهما ، فلما اكتحلت عيناها برؤية أبى ذر قالت : « ما رأيت ؟ »

ـ رأيت رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رئى ملاحيا أبدا ، ولا مماريا أحدا ، حتى سماه قومه الأمين ، يدعو الى الله بالحسنى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، فشهدت أن لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، وأسلمت وأسلم أخى أنيس

فقالت أمهما : مابى رغبة عن دينكما ، فانى قد أسلمت وصدقت ..

سرّ أبو ذر لاسـلام أهل بيته ، فهل يرضى بهذا ويقنع ، وهل يقبع فى عقر داره مصليـا ذاكرا ربه ، عاملا على ارضائه ؟ لا ، لن يفعل أبو ذر ذلك ، ليخرجن الى قومه ، وليدعون الى دين الله الحق، ولتكن مشيئة الله

وأتى أبو ذر قومه ، فألفاهم جالسين عند خفاف بن ايماء ابن رحضة الغفارى سيدهم ، آخذين بأطراف الحديث ، فسلم وجلس ، لا ليتحدث مع السامرين ، ولا ليضحك مع الضاحكين ، بل ليبلغهم نبأ ظهور فجر جديد ، فجر سيخرجهم من الظلمات الى النور ، ويرفعهم من وهاد الفقر والذل ، الى الغنى والعز ، والسؤدد والسلطان

كان الحديث يسرى بين السامرين ، رقيقا كنسمات الأصيل ، الى ان تحدث أبو ذر ، فانقلب ريحا صرصرا عاتية ، وكثر الجذب والشد ، والأخذ والرد ، وطال حوارهم ونقاشهم ، حتى انتصر الحق الأبلج ، وبدد بنوره الساطع دياجير الباطل ، قال أبو ذر :

ـ خرج نبى فى مكة يدعو الى عبادة رب هذه السماء الصافية ، والأرض المترامية ، والنجوم المتلألئة ..

فقاطعه أحـدهم : أيدعى ان لهذا الكون ربا غير اللات والعزى ، وهبل ، ومناة ، ونهم ؟

فقال أبو ذر : انه يدعو الى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار الصماء

فقال آخر : أحجار صماء !.. أو تقول قوله ؟

فقال أبو ذر : نعم ، هى أحجار صماء ، لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرا أو نفعا

فقال آخر : وهل صدقته ؟

فقال أبو ذر : انه يدعو الى دين يقبله العقل ، وتستريح اليه النفس . انه يدعو الى الأخاء والمساواة بين الناس ، فلا فرق بين السادة والعبيد أمام الله الا بقدر العقيدة والعمل . انه يخلى الطريق بين العبد وربه ، يدخل اليه بغير واسطة ، ويتقرب اليه بغير زلفى ، ويقول : ان الله قريب من عباده ، يسمع شكواهم ودعواهم ، ويعلم ما فى الصدور . انه يدعو الى دين الحق ، فكيف لا أصدقه ! ؟

فقال أحدهم : قد ضل أبو ذر

فقال أبو ذر : والله قد رشد أبو ذر وأنتم الضالون

وقال آخر : فتن أبو ذر ، بعد أن قابل الصابىء ، وأصبح صابئا مثله . كفر بأربابه ، وسفه أحلام آبائه

فقال أبو ذر : على رسلك ، لقد كفرت بالأصنام

جميعها ، باللات والعزى ، ومناة ، وهبل ، ونهم ، قبل ان ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهديت الى انها صخور ، لا تدعى لغى ولا رشد

فحدثت ضـجة بين القوم ، وارتفعت أصـواتهم باستنكار ما يعيب به آلهتهم ، فقال أبو ذر :

ـ فلنتناقش فى هدوء ، ولنقرع الحجة بالحجة ، فما أبغى سوى هـدايتكم . دعونى أقص عليكم أول ما هديت الى عجز الأصنام

فقال أحدهم : لا ، هذا كثير

وابتدأ القوم يزمجرون ، فقال سيدهم خفاف ، دعوه يقص قصته ، والحق أبلج ، لايستعصى على البصائر ادراكه ..

فقال أبو ذر : أتيت يوما الى نهم أصب له لبنا ، وقدمت له قربتى المتواضعة خاشعا لأدرأ بها غضبه ، وأبتغى بها مرضاته ، وهممت بالانصراف ، فحانت منى التفاتة عارضة لمعبودى ، فما كان أشد دهشتى اذ رأيت كلبا يشرب اللبن المقدم للاله ، والاله مغرق فى البله والوجوم ، لايرى شيئا ، ولا يفعل شيئا ليذود عن لبنه المقدس . وتريثت قليلا أنظر مشدوها ، فرأيت أدهى

من ذلك وأمر ، رأيت الكلب لايكتفى باختلاس قربة المعبود العاجز ، بل يرفع رجله فيبول عليه . ذلك مبلغ نهم من الحول والقوة والعزة ، وهذه جلالته ، وهذا سلطانه ..

فأطرق الجميع ، وسكن المكان سكون الرموس ، وقال أبو ذر : « ها قد تمردت أفئدتكم على الايمان بالاله المهين، وقد بدا لكم ماكنا نخوض فيه من ضلال»

فقال واحد منهم : ومن يدرينا ان النبى الذى تتحدث عنه صادق لا كاذب ؟

فقال أبو ذر : لقد سألت نفسى هذا السؤال ، قبل ان ألقى رسول الله ، ولكن لما رأيت وجهه اذا وجهه ليس بوجه كذاب

فقال الأول : اذا قدم نظرنا فى أمره

فقال أبوذر : انه يدعوكم الى الخير ومكارم الأخلاق، يدعوكم الى التراحم والتواد ، والبر والتقوى ، وينفر من الوأد ، فما ذنب طفلة صغيرة بريئة فى أن توارى فى التراب حية ؟.. لقد جاءكم بهناءة الدنيا وسعادة الآخرة

وما زال أبوذر بهم حتى أسلم خفاف بن رحضة سيد القوم ، وتبع كثير من القوم سيدهم فأسلموا ، وطمع

أبو ذر فى اسلام بقيتهم ، فقال لهم : « وأنتم ما يمنعكم من أن تدخلوا فى دين الله ، وتؤمنوا برسوله ؟ »

فلم يغلظوا له فى القول ، ولم يكذبوه . وكيف يكذبونه ، وقد حصحص الحق ، وتبين الرشد من الغى ، بل قالوا : « اذا قدم رسول الله أسلمنا »

وانصرف القوم ، ونامت غفار ليلتها الأولى فى كنف الدين الجديد ، هادئة مطمئنة ، راضية مرضية

زمار الحي لا يطرب

وقف خفاف بن ايماء يصلى بقومه صلاة العصر ، وقضيت الصلاة ، فاتجه كل الى حال سبيله ، وبقي أبو ذر وخفاف يتسامران ، فقال أبو ذر : « مضت مدة طويلة لم نسمع فيها عن محمد وأصحابه شيئا ، ترى ما حدث لهم ؟

ـ عذبت القبائل من آمن منهم وسجنوهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، فهاجر بعضهم الى الحبشة

ـ هذا ما سمعناه من القافلة المتجهة الى الشام ، ولكن ما جد بعد ذلك ؟ انى لمتلهف لسماع أخبارهم ، أشفق من تعذيب الكفار لهم

ـ أيظن الكفار أنهم بتعذيبهم للمؤمنين يفتنونهم عن دينهم ، الى عبادة الأوثان ؟.. انهم لفى ضلال مبين

ـ ومتى كان الاضطهاد والتعذيب والتنكيل وسيلة للاقناع ؟ لقد سكن الايمان قلوبهم ، ولن يضلهم الله بعد اذ هداهم

ــ لقد حاولوا رد المسلمين الى حظيرتهم بكافة الطرق، فباءوا بخزى عظيم ، وأطلقوا آخر سهم فى جعبتهم ، فعذبوهم وسجنوهم ، وسيرتد سهمهم الى نحرهم ، وسينتشر الاسلام ولو كره الكافرون

ــ لن يخذل الله قوما يقولون : لا اله الا الله ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وسيظهر الله دينه ، ويعلى كلمته

وأقبل رجل على خفاف وأبى ذر ، فسلم ، فسأله أبو ذر : « من أين ؟ » قال : « من مكة » فقال : « وكيف حال محمد وأصحابه ؟ » قال : « يذوقون من العذاب ألوانا ، أما سمعتم بقصة الصحيفة ؟ » فقال : « لا » قال : « هاجر المسلمون الى الحبشة ، فجاوروا بها خير جار ، وأمنوا على دينهم ، وعبدوا الله لا يؤذون ولا يسمعون شيئا يكرهونه ، وأرسلت قريش «عمرو بن العاص» الى النجاشى يحمل هدايا كثيرة ، ويطلب اعادة الخارجين عن دين آبائهم ، ولكن النجاشى رفض تسليمهم لما سمع قول جعفر وأصحابه » فقال خفاف : « هل فعل النجاشى ذلك ؟ انه ملك عظيم » فقال الرجل : « بل أكثر من ذلك ، فقد أكرم وفادتهم وأنزلهم منزلة

حسنة » فقال أبو ذر : « وما فعلت قريش ؟ »

فقال الرجل : لمــا بلغ قريشا فعــل النجاشى لجعفر وأصحابه ، واكرامه اياهم ، كثر ذلك عليهم ، وغضبوا على رسول الله وأصحابه ، وأجمعوا على قتل رسول الله ، وكتبوا كتابا على بنى هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولايخالطوهم، وعلقوا الصحيفةفىجوفالكعبة

ثم حصروا بنى هاشم فى شعب أبى طالب ، وانحاز بنو عبد المطلب بن عبد مناف الى أبى طالب فى شعبه مع بنى هاشم . وخرج أبولهب الى قريش ، فظاهرهم على بنى هاشم، وبنىعبد المطلب ، وقطعوا عنهم الميرة والماء ، فكانوا لايخرجون الا من موسم الى موسم ، حتى بلغهم الجهد ، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب ، فمن قريش من سره ذلك ، ومنهم من ساءه . ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم ، وان الأرضة قد أكلت ما فيها من قطيعة وجور وظلم ، وبقى ما كان فيها من ذكر الله ، فذكر رسول الله ذلك لأبى طالب ، فقال أبوطالب : « أحق ماتخبرنى به يا ابن أخى ؟ » قال رسول الله : « نعم والله »

فذكر ذلك أبوطالب لاخوته ، فقالوا له : « ماظنك

به ؟» فقال أبوطالب : « والله ماكذبنى قط» ، قالوا : « فما ترى ؟ »قال أبوطالب : « أرى أن تلبسوا أحسن ما تجدون من الثياب ، ثم تخرجوا الى قريش ، فتذكروا لهم ذلك قبل أن يبلغهم الخبر » . فخرجوا حتى دخلوا المسجد ، فقصدوا الى الحجر ، وكان يجلس فيه أكابر قريش وأشرافها ، فترفعت اليهم المجالس ، ينتظرون ماذا يقولون ، فقال أبوطالب : « ان ابن أخى قد أخبرنى ، ولم يكذبنى قط ، ان الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فلحست كل ماكان فيها من جور أو ظلم أوقطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله ، فان كان ابن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وان كان كاذبا دفعته اليكم فقتلتموه ، أو استحييتموه »

فقال القوم : « قد أنصفتنا » ، فأرسلوا الى الصحيفة ففتحوها ، فلم يجدوا بها سوى اسم الله

فقال أبو ذر : وما فعلوا بعد ذلك ؟

قال الرجل : سقط فى أيديهم ، ونكسوا على رءوسهم فقال أبوطالب : « علام نحبس ونحصر ، وقد بان الأمر» ثم دخل هو وأصحابه بين الكعبة وأستارها ، فقال : « اللهم انصرنا ممن ظلمنا ، وقطع أرحامنا ، واستحل

ما يحرم عليه منا » ، ثم انصرفوا الى الشعب . وتلاوم رجال من قريش على ماصنعوا ببنى هاشم ، ولبسوا السلاح ، ثم خرجوا الى بنى هاشم وبنى عبد المطلب فأمروهم بالخروج الى مساكنهم ، ففعلوا

فقال خفاف : وما فعل بقيتهم ؟

فقال الرجل : قبلت ذلك على مضض

فقال خفاف : انى لأعجب كيف يلقى رسول الله كل هذا العنت من أهله وعشيرته

فقال أبو ذر : لا عجب فى ذلك ، فزمار الحى لايطرب

اسلام يثرب

انتشر خبر اسلام يثرب فى غفار ، انتشار النـار فى الهشيم ، واجتاحت القبيلة موجة من البشر والسرور ، وأخذ المسلمون يهنىء بعضهم بعضا ، لاسلام الأوس والخزرج ، أطول الناس ألسنة ، وأحدهم سـيوفا ، وأكثرهم مؤاساة . لقد أراد الله اظهار دينه ، ونصر نبيه ، وانجاز ما وعده

ودخل أنيس على أخيه أبى ذر يحمل اليه البشرى ، وقال : « قد فشا الاسلام فى المدينة ، وأسلم الأوس والخزرج » . فقال أبوذر : « وسيهاجر اليها رسول الله قريبا » . فنظر أنيس الى أخيه مدهوشا ، وقال : «أبلغك أنباء غير ما وصل الينا ؟ » . فقال : « لا ، ولم أسمع خبر اسلام يثرب الا منك » . قال : « ومن أدراك ان رسول الله سيهاجر الى يثرب ؟ » . قال : « لقد قال لى يوم قابلته : « اننى وجهت الى أرض ذات نخل ، فلا

أحسبها الا يثرب » . صدق رسول الله . فقال : « وهل يتركه قومه يهاجر ، ليقلب المسلمين عليهم ؟ » . قال : « سواء أتركوه أم منعوه فسيهاجر ، أما كيف ومتى ؟ فهذا من تدبير الله ، فدع ما لله لله » ..

وهمّ أبو ذر بالخروج ، فقال أخوه : « الى أين ؟ » . قال : « لقد فكرت فى الخروج الى يثرب ، لأسمع منهم خبر اسلامهم ، وأتنسم أخبار النبى الحبيب » . وانطلق أبو ذر الى يثرب ، حتى بلغ مسجد بنى زريق ، فسمع مقرئا يرتل القرآن ، فدخل وسأل عمن قابل رسول الله منهم ؟ فأرشده القوم الى رافع بن مالك الزرقى ، فاتجه أبوذر اليه وقال : « السلام عليك ورحمة الله » . قال : « وعليك السلام ورحمة الله » . وجلس أبوذر بجواره ، وقال : « أنا أبوذر الغفارى أخوك فى الاسلام» . قال : « نزلت أهلا ، هل من حاجة أقضيها لك ؟ » . فقال : «بلغنىانك أسلمت ، وأسلم الأوس والخزرج ، فاشتاقت نفسى لسماع أخبارالرسول ، فجئتكم عسىأن أجد عندكم ما يخفف من نار الشوق التى تأكل صدرى » . قال : « قد قابلنا رسول الله وسلمنا ، ولم يبق دار من دورنا الا فيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال :

« ومتى قابلتموه ؟ وأين ؟ وكيف هو ؟ » . قال : « كنا نزولا بمنى أنا وخمسة نفر من أهل يثرب ، فمر علينا رسول الله ، فوقف وقال : « أحلفاء يهود ؟ » قلنا : «نعم» ، فدعانا الى الاسلام ، وعرض علينا الاسلام ، وتلا علينا القرآن ، فأسلمنا . وقال لنا رسول الله : « تمنعون لى ظهرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ » فقلنا له : «يارسول الله ، نحن مجتهدون لله ورسوله ، نحن ـ فاعلم ـ أعداء متباغضون ، فان تقدم ونحن هكذا لايكون لنا عليك اجتماع ، فدعنا حتى نرجع الى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا ، وموعدك الموسم العام المقبل. ولما كان العام المقبل ـ أى بعد مقابلتنا له بعام ـ خرجنا عشرة من الخزرج ومن الأوس رجلا الى مكة ، وقابلنا الرسول فأسلمنا ، وبايعنا على بيعة النساء ، على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف

فقال الرسول : « فان وفيتم فلكم الجنة ، ومن غشى من ذلك كان أمره الى الله ، ان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه » ، ثم انصرفنا الى المدينة فأظهر الله الاسلام

: ـ وهل قابلت الرسول بعد ذلك ؟.. قال :

ـ أجل . لما حضر الحج ، مشينا بعضنا الى بعض ، تتواعد المسير الى الحج ، وموافاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا ونحن سبعون ، فى جماعة الأوس والخزرج وهم خمس مئة ، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لنا :

ـ اذا هدأت الرحل وافونى فى الشعب الأيمن ، اذا انحدرتم من منى أسفل العقبة

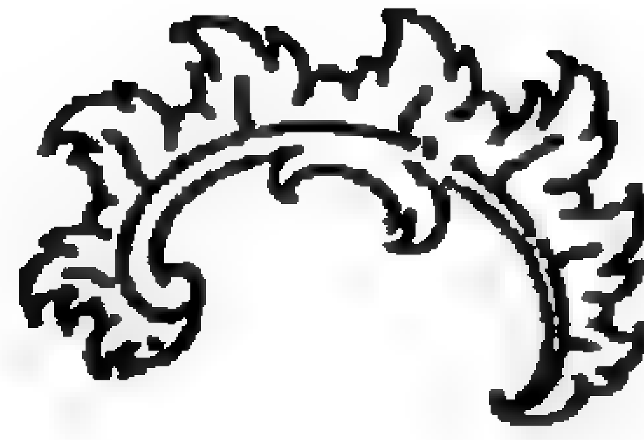
وأمرنا ألا ننبه نائما ولا ننتظر غائبا

فخرجنا بعد هدوء الرحل تتسلل ، الرجل والرجلان ، وقد سبقنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك الموضع ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، وليس معه أحد غيره . اجتمعنا فقال العباس :

ـ يامعشر الخزرج : انكم قد دعوتم محمدا الى ما دعوتموه اليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه منا من كان على غير قوله ، يمنعه للحسب والشرف . وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم أهل قوة وجلد وتبصر بالحرب واستقلال ، العرب قاطبـة ترميكم عن قوس واحدة ، فارتئوا رأيكم وأتمروا أمركم . لاتفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع ، فان أحسن الحديث أصدقه

فقال المعرور : « قد سمعنا ماقلت ، وانا والله لو كان فى أنفسنا ، غير ما تنطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله » . وتلا رسول الله القرآن ، ثم دعانا الى الله ورغبنا فى الاسلام ، فأجابه البراء بنَ معرور بالايمان والتصديق ، ثم قال : «يارسول الله بايعنا ، فنحن أهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر». وقال أبو الهيثم : «نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف» . وارتفعت الأصوات من كل جانب ، ولغط القوم ، فقال العباس : « أخفتوا جرسكم ، فان علينا عيونا ، وقدموا ذوى أسنانكم فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فانا نخاف قومكم عليكم ، ثم اذا بايعتم فتفرقوا الى محالكم » . وقال العباس : « ابسط يدك يارسول الله » ، فضربنا على يده جميعا وبايعناه . فقال أبو ذر : « وكيف كان رسول الله ؟ » . فقال رافع : « طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوما أهل حرب وعدة ونجدة » . قال أبو ذر : « أما خف عداء قريش له ؟ » . قال : «لا يا أبا ذر» ، فقد بلغنى ان المشركين نالوا من أصحاب رسول الله بعد مقابلته لنا ، ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، وضيقوا عليهم ،

وتعبثوا بهم . فقال : « سيكون نتيجة هذا الاضطهاد وهذا الضغط ، خروج المسلمين من مكة وهجرتهم الى يثرب » . قال : « أو يقدم رسول الله معهم ؟ » . فقال : « أجل سيقدم ، فطوبى ليثرب وأهل يثرب »



غفار غفر الله لها

اكتست غفـار بحلة من البهجة ، وغمر القوم بشر وسرور ، فقد بلغهم ان رسول الله قادم اليهم مع أبى بكر خليل الرسول ورديفه بين مكة والمدينة ، وشعر أبو ذر بموجة من السعادة تجتاحه ، ووقف مع القوم يتحين قدومه ، وضربت حلقة حوله كان هو قطب رحاها ، وجعل القوم يسألونه عن النبى وكيف هو ، وماشكله ، فكان يجيبهم : «عما قريب سترون خير الناس وأفضلهم».
واستبطأ الناس مرور الزمن ، وجعل أبو ذر يمد بصره يكشف الطريق لعله يلمح الرسول فيزف اليهم بشرى قدومه ، فيرد الى تلك النفوس الصادئة لرؤياه طمأنينتها، والى تلك الأفئدة التى تتفاعل فيها الأشواق لسماع حلو حديثه والخوف لتأخره هدوءها ودعتها

ومر الوقت بطيئا ، وبنو غفار ينتظرون قدوم الرسول متلهفين قلقين ، ومد أبو ذر بصره فلمح بعيرا قادما ،

فتأمله وأطال النظر، وتطلع الجميع الى حيث ينظر أبو ذر، وأخيرا هتف : « هو والله رسول الله » . فردد الجميع : « جاء نبى الله » . وأسرع أبو ذر وسلم على الرسول ، وأخذ زمام راحلته ، وسار الناس من حولهم يتصايحون : «الله أكبر» . وجعل الولائد والصبيان والاماء يرددون : «هذا رسول الله قد جاء» ، ونزل رسول الله عن راحلته ، وجاء المسلمون يسلمون عليه . وجلس الرسول ، وقام أبو بكر يذكر الناس ، وقرأ النبى القرآن وجعل يدعو الناس الى الاسلام ، فأقبل الناس يبايعون ، ووقف أبو ذر بجوار الرسول فخورا مسرورا

وتفرس الناس فى النبى فرأوا رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة (ضخم البطن) ولم تزر به سعلة (نحول فى البدن) ، وسيم قسيم ، وفى عينيه دعج، وفى أشفاره وطف ، وفى شعر أجفانه طول، وفى صوته صحل (صوت البحة) ، أحور أكحل ، أزج أقرن، شديد سواد الشعر ، وفى عنقه سطع (ارتفاع وطول) ، وفى لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات (جواهر) نظم ينحدرن ، حلو المنطق فصل ، لانزر ولا هذر ، أجهر

الناس وأجمله من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة (وسـط ما بين الطويل والقصـير) لا تشنؤه (تبغضه) من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر

وطلب خفاف بن رحضـة الغفارى من الرسول أن يكتب كتابا لقومه ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنى غفار : انهم من المسلمين ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ماعلى المسلمين . وان النبى عقد لهم ذمة الله وذمة الرسول ، على أموالهم وأنفسهم، والنصر علىمن بدأهم بالظلم ، وان النبى اذا دعاهم لينصروه أجابوه ، وعليهم نصره الى من حارب فى الدين ، ما بل بحر صوفة ، وان هذا الكتاب لا يحول دون اثم

أسلم بنو غفار ، وانشرح صدر أبى ذر لما رأى بنى قومه يدخلون فى دين الله أفواجا ، فرفع يديه الى السماء وتمتم :

ـ الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

فالتفت الرسول الى أبى ذر وقال :

ـ غفار غفر الله لها

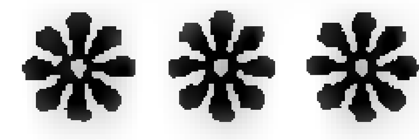
الانطلاق إلى يثرب

انطوى الزمن ، واتجه أبو ذر الى المسجد ، فى عصر يوم من الأيام ، ليصلى مع الجماعة صلاة العصر ، فدخل بقامته الطويلة النحيلة ، ولما قضيت الصلاة انتحى ناحية من المسجد ، وجلس بجوار رجل يقرأ القرآن بصوت شجى عذب ، فأنصت اليه ، وأطرق فى خشوع ، وجعل الرجل يرتل : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم »

كان أبو ذر يستمع الى الآيات بأذن واعية ، فحركت الدعوة الى الله والى دار السلام نفسه الأبية ، وجعلته يفكر فى حاله ، وفيما يقعده عن الانطلاق الى يثرب

والانضمام الى الرسول والجهاد فى سبيل الله ، وما الذى يضطره الى البقاء فى غفار ، بعيدا عن اخوانه المجاهدين العاملين على اعلاء كلمة الله ونشر دينه . لا شىء ! فليهاجرن الى رسول الله ، وليقاتلن الكفار معه ، فاما عز ونصر ، واما استشهاد وموت ، وجنات عرضها السموات والأرض . وبدا العزم على وجهه الأسمر ، فنهض وخرج الى الدار ، فوجد أخاه أنيسا ، فقال له : « سأخرج غدا الى يثرب » فقال له : « أتمكث بها طويلا ؟ متى تعود ؟ » . قال : « لعلى لا أعود أبدا » . فقال : «وماذا تفعل هناك ؟ » . قال : « أنضم الى الرسول ولن أفارقه بعد اليوم » . فقال له : « وعلى من تنزل ؟ » . قال : « أنام فى المسجد مع أصحاب الرسول ، الذين لا مأوى لهم غيره » . فقال له : « لقد أسلمت وصدقت ونلت ما تبغى ، فابق فى قبيلتك ، بالقرب من دارك ، فأهلك أولى بك » . قال : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم . كفى يا أنيس ماضاع ، لقد غزا النبى غزوة بدر وأنا فى غفار ، وغزا غزوة أحد ، واستشهد من أصحابه من استشهد ، ونالوا الدرجة العليا ، وأنا قابع هنا فى عقر دارى ، ووقعت واقعة الخندق وأنا متقاعد عن الجهاد .

ألا كفى يا أنيس ما فاتنى من خير » . فقال له : « ابق فى دارك ، واذا دُعيت للجهاد فلبِّ النداء » . قال : « وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وقد وهبت نفسى لله ، ولا مطمع لى فى حطام هذه الدنيا الفانية ، وكل ما أبغى هو رضا الله ورسوله ، فما الذى يدعونى الى البقاء ؟ والله لأنطلقن الى يثرب ، والله يهدى الى سواء السبيل »



وهمَّ أبو ذر بالخروج ، ولم يتزود ، ولم يأخذ معه شيئا ، فقال أنيس : « أليس تتخذ من الزاد ما يصلحك ويبلغك ؟ » . قال : « تكفينى كسرة خبز طوال الطريق »

وانطلق أبو ذر الى يثرب ، وانضم الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأصبح تابعا من أتباعه ، يغترف من معين علمه الذى لاينضب ، ويتأدب بأدبه ، ويحاكيه فى زهده ويتمثل به فى بره وعطفه وكرمه

أهل الصفّة

أصبح أبو ذر يقضى عامة يومه فى مسجد الرسول ، عاكفا على العبادة ، منقطعا الى الله تعالى ، معرضا عن زخرف الدنيا وزينتها ، زاهدا فيما يقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه وكان اذا جن الليل ، أوى الى المسجد مع ناس من أصحاب الرسول ، لا منازل لهم ، وما لهم من مأوى غيره . وكان الرسول يدعوهم اليه بالليل اذا تعشى ، فيفرقهم على أصحابه ، وتتعشى طائفة منهم معه. وقد كان أبوذر منهذه الطائفة ، وقد أراد الله به خيرا ، ففتح له قفل قلبه ، وجعل فيه اليقين والصدق ، وجعل قلبه واعيا لما سلك فيه ، وجعل قلبه سليما ، ولسانه صادقا ، وخليقته مستقيمة ، وجعل أذنه سميعة ، وعينه بصيرة ، فسمع من الرسول ووعى ، وتعلم وحفظ ، وتحدث وروى ، فكان من أعظم المحدثين ، وحاكى الرسول فى زهده ، فكان أشهر الزاهدين

وفى ذات يوم دخل عمر المسجد ، واذا أبوذر جالس وحده ، فقال عمر : « لم تجلس وحدك؟» . فقال أبوذر: « اجلس ، الصاحب الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من صاحب السوء ، ومملى الخير خير من مملى الشر ، والأمانة خير من الخاتم ، والخاتم خير من ظن السوء»

وأخذ أبوذر وعمر بأطراف الحديث ، وتوافد الناس على المسجد . وأذن بلال لصلاة المغرب ، فخرج النبى وصلى بالناس . ولما قضيت الصلاة تكونت حلقات من الذاكرين الله ، والمستمعين الى الرسول . وجلس أبو ذر يسمع الى الرسول وهو يقول : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحكم مابينكم . هو الفصل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولايخلق عن كثرة الرد ، ولا تقضى عجائبه . هو الذى لم ينته الجن اذا سمعته حتى قالوا : (انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به) . من قال به صدق ، ومن عمل

به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم »

وعقب صلاة العشاء انصرف الناس من المسجد ، وبقى أهل الصفة ليمضوا ليلهم فيه ، ودخل الرسول منزله ، ونام أصحابه . ولما انقضى من الليل ثلثه ، خرج الرسول الى المسجد وقال لأبى هريرة : « ادع لى أصحابى »

فجعل أبو هريرة يأتيهم رجلا رجلا فيوقظهم ، وأيقظ أبا ذر ، حتى جمعهم ، فجاءوا باب الرسول ، فاستأذنوا ، فأذن لهم ، فدخلوا وكانوا قرابة ثلاثين رجلا ، ووضع الرسول لهم صحفة فيها صنيع شعير ، ووضع يده عليها وقال : « خذوا باسم الله ، والذى نفس محمد بيده ما أمسى فى آل محمد طعام ليس شيئا ترونه »

فأكلوا ما شاءوا ، ثم عادوا الى المسجد ، ليستأنفوا نومهم . فما مست جنوبهم الأرض ، حتى مس سلطان الكرى جفونهم ، فأمعنوا فى الرقاد الهادىء المطمئن ، ونشر السكون غلالته على المكان ، وأطبق أبوذر عينيه ، ولكنه سمع حفيف ثوب ، ففتحهما ، فرأى رسول الله مقبلا الى المسجد من منزله ، فجعل يرقبه ، فألفاه يتجه الى القبلة ويأخذ فى الصلاة ، فأرهف أذنيه ، فسمعه

يقرأ بآية : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » . واستمر يرقب الرسول ، فوجده يركع ويسجد بها طوال الليـــل حتى أصبح ، فازداد عجبه ، واشتاق لمعرفة سر ذلك ، فلما انتهى رسول الله من صلاته ، قام أبوذر اليه وقال : « يارسول الله ، مازلت تقرأ هذه الآية ، حتى أصبحت ، تركع وتسجد بها » . قال الرسول : « فانى سألت الله الشفاعة فأعطانيها ، وهى نائلة ان شاء الله لمن لايشرك بالله عز وجل »

الوصـــية

دارت عجلة الزمن، واشترك أبوذر مع النبى فى جميع غزواته التى تلت الخندق ، فكان شجاعا ، ينفرد وحده ، فيقطع الطريق ، ويغير على الصرم كأنه السبع . وغزا مع النبى غزوة بنى لحيان وغزوة ذى قرد . وفى السنة السادسة من الهجرة خرج الرسول لغزو بنى المصطلق من خزاعة ، لما بلغه انهم مجتمعون له ، فاستخلف أبا ذر على المدينة ، ولقيهم بالمريسيع من مياههم ، ما بين قديد والساحل ، فتزاحفوا وهزمهم

ونال أبو ذر الحظوة عند النبى ، فكان عليه الصلاة والسلام يبتدئه اذا حضر ، ويتفقده اذا غاب . وفى يوم أتى أبو ذر رسول الله وهو نائم ، وعليه ثوب أبيض ، ثم أتاه وقد استيقظ ، فقال الرسول لما رأى أبا ذر : « ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة» . فقال أبوذر : «وان زنى وان سرق؟» . قال الرسول : « وان زنى وان سرق » . فقال أبوذر:

«وانْ زنى وانْ سرق؟» . قال الرسول مؤكدا : « وانْ زنى وانْ سرق » . فقال أبو ذر مستنكرا : « وان زنى وان سرق ؟ » . فقال الرسول : « وان زنى وان سرق ، على رغم أنف أبى ذر » .

وخرجا الى المسجد ، فلما دخلاه قال النبى لأبى ذر: « يا أبا ذر ، ارفع رأسك . » فرفع أبو ذر رأسه ، فاذا رجل عليه ثياب جياد . وسارا بضع خطوات ، فقال الرسول له : « ارفعَ رأسك . » فرفع أبو ذر رأسه ، فاذا رجل عليه ثياب خلقة . فقال الرسول : « يا أبا ذر ، هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا »

واستمر أبو ذر يبيت فى مسجد الرسول ، حتى أعرس ، فاتخذ له منزلا . فدخل عليه رجل ، وجعل يقلب بصره فى بيته ، فلا يجد به شيئا ، فقال له الرجل : « يا أبا ذر ، أين متاعكم ؟ » . فقال أبو ذر : « لنا بيت نوجه اليه صالح متاعنا » قال : « انه لا بد لك من متاع ، ما دمت ها هنا » . فقال : « ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه » ونظر أبو ذر الى الرجل ، وقال : « والله لو تعلمون ما أعلم ، ما انبسطتم الى نسائكم ، ولا تقاررتم على فرشكم . والله لوددت أن الله عز

وجل خلقنى يوم خلقنى شجرة تعضد ويؤكل ثمرها »
قال : « أويمنع هذا من أخذك من الدنيا بنصيب ؟ »

قال أبو ذر : « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود ، وهو يسعى لدار الغرور »

وخرج الرجل ، واتجه أبو ذر الى المسجد ودخل ، فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده ، فجلس اليه ، فقال الرسول : « يا أبا ذر ، ان للمسجد تحية ، وان تحيته ركعتان ، فقم فاركعهما » . ثم عاد وجلس اليه ، ووجد الفرصة سانحة ليتفقه فى دينه ودنياه ، فقال : « يا رسول الله ، انك أمرتنى بالصلاة ، فما الصلاة ؟ » قال : « خير موضوع استكثر أو استقل » . فقال : « يا رسول الله ، فأى الأعمال أفضل ؟ » . قال : « ايمان بالله عز وجل ، وجهاد فى سبيله » . فقال : « فأى المؤمنين أكملهم ايمانا ؟ » . قال : « أحسنهم خلقا » . فقال : « يا رسول الله ، فأى المؤمنين أسلم ؟ » . قال : « من سلم الناس من لسانه ويده » . فقال : « يا رسول الله ، فأى الهجرة أفضل ؟ » . قال : « من هجر السيئات » . فقال : « يا رسول الله ، فأى الصلاة أفضل ؟ » . قال : « طول

القنوت » . فقال : « يا رسول الله ، فما الصيام ؟ » .
قال : « فرض مجزى ، وعند الله أضعاف كثيرة » .
فقال : « يا رسول الله ، فأى الجهاد أفضل ؟ » . قال :
« من عقر جواده ، وأهريق دمه » . فقال : « يا رسول
الله ، فأى الرقاب أفضل ؟ » . قال : « أغلاها ثمنا ،
وأنفسها عند ربها » . فقال : « يا رسول الله ، فأي
الصدقة أفضل ؟ » . قال : « جهد من مقل يسر الى
فقير » . فقال : « فأى آية مما أنزل الله عز وجل عليك
أعظم ؟ » . قال : « آية الكرسى . ياأبا ذر، ما السموات
السبع مع الكرسى الا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » .
فقال : « كم كتابا أنزل الله ؟ » . قال : « مئة كتاب
وأربعة كتب : أنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأنزل
على اخنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على ابراهيم عشر
صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف،
وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان » . فقال :
« يا رسول الله ، فما كانت صحف ابراهيم ؟ » . قال :
« كانت أمثالا كلها : « أيها الملك المسلط المبتلى المغرور،
فانني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها الى بعض ، ولكن
بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فانى لا أردها ولو

كانت من كافر » . وكان فيها أمثال : « على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا الا لثلاث : تزود لمعاد ، أو فرقة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا لزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه . ومن حسب كلامه من عمله ، قل كلامه الا فيما يعنيه »

فقال : « يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ » . قال : « كانت عبرا كلها : « عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح . عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك . عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب . عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن اليها . عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ، ثم لا يعمل » . فقال : « يا رسول الله ، أوصنى » . قال : « أوصيك بتقوى الله ، فهى رأس الأمر كله » . فقال : « يا رسول الله ، زدنى » . قال : « عليك بتلاوة القرآن ، فهو نور لك فى الأرض ، وذكر لك فى السماء » فقال : « يا رسول

الله زدنى » . قال : « اياك وكثرة الضحك ، فانه يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « عليك بالصمت الا من خير ، فانه مطردة للشيطان عنك ، وعون لك على أمر دينك » . فقال : « يارسول الله زدنى » . قال : « أحب المساكين وجالسهم » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « انظر الى من تحتك ولا تنظر الى من فوقك ، فانه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عندك » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال « صل قرابتك وان قطعوك » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « لا تخش فى الله لومة لائم » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « قل الحق ولو كان مرا » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « يردك عن الناس ما تعرف عن نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفي به عيبا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، أو تجد عليهم فيما تأتى »

ثم ضرب بيده على صدر أبى ذر ، وقال : « يا أباذر ، لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحسن الخلق »

إلى مكة

جلس النبى صلى الله عليه وسلم صامتا فى المسجد ، فصمت جميع الجالسين اليه ، حتى لم يعد تسمع فى المسجد لاغية ، وظنوا أن ينزل عليه الوحى ، فأقصروا عنه ، ومر الوقت وكأن على رءوسهم الطير ، حتى جاء أبو ذر ، فاقتحم فجلس اليه ، فأقبل عليه النبى صلى الله عليــه وسلم ، فقــال : « يا أبا ذر ، هل صليت اليوم ؟ » قال : « لا » . فقال : « قم فصل » .

فقام أبو ذر ، وصلى أربع ركعات الضحى . ثم أقبل عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شــياطين الجن والانس » . قال : « يا نبى الله ، أو للانس شياطين ؟ » فقال : « نعم ، شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » .

وسكت النبى ، وسكت أبو ذر . ثم قال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر ، ألا أعلمك كلمات من كنز

الجنة ؟ » فقال : « بلى . جعلنى الله فداءك » . قال :
ـ قل : « لا حول ولا قوة الا بالله » ..
ودخل عمرو بن سالم الخزاعى المسجد ، وأسرع نحو الرسول ، حتى وقف بين يديه ، فقال : « نقضت قريش عهد الحديبية ، يا رسول الله » . وتجاوبت أصوات فى المسجد تستفسر : « كيف ؟ كيف ؟ »
ـ لقد دخلت قبليتى خزاعة فى عهدكم ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش . وتعلمون أن بيننا وبين بنى بكر ثارات وحـزازات قديمة ، سكنت بعد صـلح الحديبية . فلما لم ينتصروا على الروم فى مؤتة ، خيل الى القرشيين أنه قضى عليـكم ، وانه لن تقوم لكم قائمة بعد غزوتكم هذه ، فحرضوا بنى بكر علينا . فبينا نحن ذات ليلة على ماء لنا ، اذ فاجأنا بنو بكر ، فقتلوا منا ، فسارعت اليك يا نبى الله ، أستنصرك على من اعتدى علينا ، فقال النبى : نصرت يا عمرو بن سالم !
وأطرق النبى مفكرا ، ورأى ان ما قامت به قريش من نقض عهده ، لا مقابل له الا فتح مكة
. وأرسل عليه السلام رسله فى أنحاء شبه الجزيرة ، ليكونوا على استعداد لتلبية ندائه ..

وراح النبى يستعد ليوم الفتح العظيم ، وفكر فى فتح مكة دون اراقة دماء ، وقلب وجوه الرأى ، فهداه تفكيره الى أن خير وسيلة لتحقيق ذلك ، أن يبغت القوم فى غرة منهم ، فلا يجدوا له دفعا ، فيسلموا . وجعل الناس يتجهزون للقتال ، لا يعلمون أين وجهتهم

وخرج النبى وأبو ذر معه ، ليعلم القوم أنه سائر الى مكة ، ليضع يده على البيت الحرام ، الذى جعله الله مباركا وهدى للعالمين . وبينما هما فى الطريق ، مال النبى ، وأخذ بغصنين من شجرة ، فجعل الورق يتهافت ، فقال النبى : « يا أبا ذر ! » . قال : « لبيك يا رسول الله ! » . فقال : « ان العبد المسلم ليصلى الصلاة يريد بها وجه الله تعالى ، فتهافت عنه ذنوبه ، كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة »

وسارا حتى بلغا القوم ، فأمرهم الرسول بالجد الى مكة ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تقف من سيرهم على نبأ . . . . . .

تحرك جيش المسلمين من المدينة قاصدا مكة فى عدد لا عهد للمدينة به . وأغذ الجيش السير ، وكان أبو ذر يخدم النبى طوال الطريق ، لا يفترق عنه ولا يتركه .

وخرج أبو سفيان يتنطس الأخبار ، فرأى نيرانا وعسكرا ما رأى مثلها من قبل قط . وقابل العباس عم النبى ، فسأله عن الخبر ؟ فقال العباس : « هذا رسول الله فى الناس ، واصباح الناس اذا دخل مكة عنوة »

رأى أبو سفيان من جيوش النبى ما أزعجه ، وخشى ما يحل بمكة اذا دهمها هذا الجيش الذى لا قبل لها به ، فسأل العباس أن يجيره ، فأركبه العباس فى عجز بغلة النبى . وفى الطريق لمح عمر أبا سفيان، فأسرع الى خيمة النبى ، وطلب اليه أن يضرب عنقه ، ولكن العباس قال : « يا رسول الله ، انى قد أجرته » . فقال الرسول : اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فأتنى به .

وفى الصباح ، دخل كبار المهاجرين والأنصار على النبى ، وجىء بأبى سفيان ، فابتدره النبى : « ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ؟ » قال : « بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره ، لقد أغنى شيئا بعد . فقال : « ويحك يا أباسفيان . ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . أما هذه فان فى النفس

منها حتى الان لشيئا »

فتوجه العبـاس الى أبى سـفيان ، وطلب منه أن يسلم ، قبل أن تضرب عنقه ، فلم يسعه الا أن يسلم

وتحركت جيوش المسلمين نحو مكة ، ووقف النبى فوق ذى طوى ، وتطلع الى مكة ، فألفاها لا تقاوم ، فخر ساجدا لله رب العالمين . ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فجاء أبو ذر بجفنة فيها ماء ، وكان فى الجفنة أثر العجين ، فستر أبو ذر النبى حتى اغتسل ، ثم ستر النبى صلى الله عليه وسلم أبا ذر فاغتسل ، واتجه الى الكعبة ، فطاف النبى سبعا على راحلته . فلما قضى طوافه ، فتحت الكعبة ، فوقف النبى على بابها ، وخطب الناس وسـألهم : يا معشر قريش ماترون انى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء

ودخل الكعبة فجعل يشير الى الأصنام المنصـوبة حولها بقضيب فى يده وهو يقول : « قل جاء الحق وزهق البـاطل ، ان البـاطل كان زهوقا » . وكبئت الأصنام على وجوهها ، وهتف أبو ذر مع الهاتفين : « قل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا »

كن أبا ذر

دانت القبائل لمحمد ، ودخل النـاس فى دين الله أفواجا ، فرفرفت الراية الاسلامية على جزيرة العرب جميعها . واستعمل رسول الله رجالا على الصدقات ، أوفدهم ليجمعوا له عشر ايراد القبـائل التى دانت للاسلام ، من غير أن يتعرضوا لأصول أموالها . وجاء الله بالغنى ، وظهرت آثار الغنى على كثير من المسلمين ، فشبعوا بعد مسغبة ، واقتنوا الحلل . وبقى أبو ذر على زهده ، ليس له طعام الا من شعير

وفى يوم اتجه أبو ذر الى الربذة ، وأمضى بها ردحا من الزمن ، ثم عاد الى المدينة ، فقصد من فوره النبى الحبيب ، وجلس اليه صامتا لا يتكلم ، فقال : يا أبا ذر

فسكت أبو ذر ، ولم يحر جوابا ..

فقال النبى : ثكلتك أمك !

فقال أبو ذر بصوت خفيض : انى جنبت

فنادى رسول الله الجارية ، وأمرها باحضار ماء ،

فجاءت به . فأخذه أبو ذر ، واتجه به الى راحلته ، واستتر بها واغتسل ، وعاد الى حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى : « يجزئك الصعيد وان لم تجد الماء عشرين سنة ، فاذا وجدت الماء فأمسه جلدك »

وأخذ النبى يوصى أبا ذر ، وأبو ذر يسمع له بأذن واعية ، حتى أقبل ابن اللتبية وهو من الأزد ، كان النبى قد استعمله على الصدقة ، فقسم الرجل ما معه قسمين ، وقال للنبى : « هذا لكم ، وهذا أهدى لى »

فظهر الغضب فى وجه النبى . ولمح أبو ذر ذلك ، فقال للرجل : « كيف أهدى لك ؟ »

ووقف النبى ، وخطب الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد ، فانى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله ، فيأتى أحدكم ، فيقول : « هذا لكم ، وهذه هدية أهديت لى . فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه ، فينظر أيهدى له أم لا ؟ والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد منه شيئا ، الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، ان كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر

فترك ابن اللتبية ما أهدى اليه ، ولم يمسه . فاتجه اليه أبو ذر ، وقال : « هذا أفضل ! » فقال الرجل : « ما كنت أدري »

وأطرق الرجل ، فقال له أبو ذر : « لا تحزن ، واعلم ان الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يسعى من لا يقين له » ثم قال له : « اذهب واعتذر للنبى »

فقصد ابن اللتبية رسول الله ، واعتذر وطلب العفو ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل .. يا عبادى كلكم مذنب الا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم . ومن علم انى أقدر على المغفرة ، فاستغفرنى بقدرتى ، غفرت له ولا أبالى . وكلكم ضال الا من هديت ، وكلكم فقير الا من أغنيت ، فاسألونى أغنكم . ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم ، اجتمعوا على أشقى قلب من قلوب عبادى ، ما نقص فى ملكى جناح بعوضة . ولو اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ، ما زاد فى ملكى جناح بعوضة . ولو ان أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم ، اجتمعوا ، فسألنى كل سائل منهم

ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منهم ما سأل ، ما نقصني ، كما لو ان أحدكم مر بشفة البحر ، فغمس فيها ابرة ثم انتزعها ، كذلك لا ينقص من ملكي . ذلك بأني جواد ماجد حمد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، اذا أردت شيئا فانما أقول له كن فيكون »

ونهض النبي وانصرف ، ودار الحديث بين القوم ، وبقي أبو ذر يدير دفة الحديث ، ويمجد الزهد ، ويدعو الله ، ويحقر من هـذه الدنيا الفانيـة ، ويبشر الذين يواسون الفقراء ، وينفقون أموالهم فى سبيل الله بجنات عرضها السموات والأرض ، تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك هو الفوز العظيم

وابتدأ القوم ينصرفون ، وخرج أبو ذر قاصـدا داره ، فمر على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعـه جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبي ، فلم يسلم ، فقال جبريل : « هذا أبو ذر ، لو سلم لرددنا عليه »

فقال النبي : « تعرفه يا جبريل ؟ » قال : « والذى بعثك بالحق نبيا ، لهو فى ملكوت السماوات السبع ، أشهر منه فى الأرض » فقال : « بم نال هذه المنزلة ؟ » قال : « بزهده فى هذاالحطام الفانى »

اتصل بالنبى نبأ من بلاد الروم ، انهـا قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصـحابه لسنة ، وأن لخم وجذام وعاملة وغسان ، قد خرجت معه . وأن هرقل عازم على غزو شمال شبه الجزيرة ، لينسى الناس ذكر العرب ، وسلطان المسلمين الزاحف فى كل مكان . فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى الخروج ، وأعلمهم المكان الذى يريد ، على خلاف عادته ، لطول الشقة بين المدينة وبلاد الشام ، وليتأهب الناس ، ويأخذوا لذلك عدتهم . وبعث الى مكة وقبائل العرب يستنفرهم ، وأمرهم بالصدقة ، وطلب من أغنياء المسلمين أن يشاركوا فى تجهيز هذا الجيش ، بما آتاهم الله من فضله

علم أبو ذر أن النبى سيخرج الى تبوك لغزو الروم ، فأراد أن يتجهز ، فاتجه الى بعيره ، فألفاه أعجف ، لا يقوى على قطع تلك المسافات الشاسعة ، بين المدينة وتبوك ، فقال فى نفسه : « أعلفه أياما ، ثم أخرج به مع النبى عليه الصلاة والسلام »

كان الحر شديدا ، والسفر طويلا ، فالتمس ضعاف الايمان الأسباب للبقاء بالمدينة ، وعدم الخروج . وجاء

بعض الفقراء الى المال ، الأغنياء بالايمان ، الذين لم يجدوا رواحل لهم ، الى النبى يستحملونه ، فلما قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : لا أجد ما أحملكم عليه ...

« ولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ، ألا يجدوا ما ينفقون » .

وأقبل النـاس من كل حدب وصـوب ، فاجتمع المسلمون بالمدينة ، وجاء أبو ذر على بعيرهِ . وخرج المؤمنون فى حر شديد ، الرجلان والثلاثة على بعـير واحد ، للجهاد فى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ، وبقى المنافقون فى المدينة ، عليهم غضب الله ورسوله

تحرك الجيش فثار النقع ،وصهلت الخيل ، وارتفع رغاء الابل ، وسارعت النساء ، وارتفعن فوق سقوف دورهن ، ليشهدن جيش الله الجزار ، المندفع صوب الشام مخترقا الفيافى والقفار ، متجشـما الأخطار ، مستهينا بالحر والظمأ والمسغبة ، فى سبيل اعلاء كلمة الله ، ونشر دينه .

واستوت الشمس فى كبد السماء ، وارتفعت أشعتها المحرقة ، تشوى وجوه المسلمين ، فتفصـد العرق ،

وأحس الناس بضيق شديد ، وكان تبرم ضعاف الايمان شديدا ، فتخلف كعب بن مالك ، وقفل راجعا الى المدينة ، فقال أصحاب الرسول للرسول :

ـ يا رسول الله ، تخلف كعب بن مالك

ـ دعوه ، ان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه ..

وأخذ الجيش يسير ، وأبطأ بعير أبى ذر ، وتخلف عن الجيش . فالتفت المسلمون الى النبى وقالوا : « يا رسول الله ، تخلف أبو ذر » فقال : « دعوه ، ان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه »

واستمر الجيش فى زحفه ، وترك أبا ذر خلفه . هل يتخلف أبو ذر عن النبى ؟ وهل يقفل عائدا الى المدينة ؟..

لا . ما كان لأبى ذر أن يتخلف عن النبى الحبيب ، وما كان لأبى ذر أن يعود الى المدينة ، لينضم الى المنافقين . انه يشعر بالظمأ ، ويحس أن رقبته ستنقطع ، ولا ماء معه . لخير أن يموت ظمآن من أن يعود الى المدينة . لقد أبطأ به بعيره ، فليزجره ، وليحثه على الاسراع ، لعله يلحق بالنبى . ولكنه لم ير ببعيره حركة ،

فماذا يفعل ؟ والى أين يتوجه ؟ فليترك بعيره هذا الذى لحقه البوار ، وليحمل متاعه على ظهره وليجد فى السير ، وليلحق باخوانه الزاحفين الغازين ، أو يموت فى الطريق

أخذ أبو ذر متاعه على ظهره ، ثم راح يتبع رسول الله ماشيا ، وأخذ منه التعب والعطش ، ولكن كانت نفسه المؤمنة بالله تشد أزره ، وتلهمه أن بعد الضيق فرجا ، وأن مع العسر يسرا ، فتقوى عزيمته ، وتصبر على الشدائد نفسه ، فيستأنف سيره بعزيمة لا تعرف الخور ، ونفس لا ترضى الا بلوغ الغرض

سار جيش المسلمين ترفعه النجاد ، وتحطه الوهاد ، وتلفحه الشمس بأشعتها الحاميـــة . ونفد الماء قبـــل الوصول الى اليرموك ، فنزل الجيش منزلا ، وأصاب الناس عطش شديد حتى ظنوا أن رقابهم ستنقطع . بحثوا عن الماء فلم يجدوه ، وفكروا فيما يفعلون ، وقلبوا وجوه الرأى ، ولم يستطع كثير من المسلمين الصبر على الظمـأ ، فقاموا الى ابلهـم ، وجعـلوا ينحرونها ، لينفضوا أكراشها ، ويشربوا ماءها . واشتد ظمأ القوم ، وأخذوا يترنحون من شدة العطش . ورأى أبو بكر أن يتجه الى الرسول يطلب منه أن يدعو الله

لهم ، فقصده وقال : « يا رسول الله ، ان الله قد عودك فى الدعاء خيرا ، فادع الله لنا » فقال النبى : « أتحب ذلك ؟ » فقال الصديق : « نعم » فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يديه نحو السماء ، وأخذ يدعو ربه ، فلم يرجعهما حتى غامت السماء ، فأطلت ، ثم سكبت ، فدبت الحياة فى المعسكر ، واستقبل المسلمون الغيث فرحين جذلين ، مهللين مكبرين ، وارتووا وملئوا ما معهم ، وشكروا الله كثيرا على ما آتاهم من فضله . وذهب بعضهم ينظر فلم يجدوا المطر قد جاوز المعسكر

ارتوى المسلمون وأصبحوا مبرودى الغليل ، بينما أبو ذر يمشى فى الطريق وحده ، لا يجد ما يطفىء به عطشه . لا يتمنى جرعة ماء ، بقدر ما يتمنى أن يلقى الرسول الخليل . ولمح أبو ذر معسكر المسلمين ، فأحيا ذلك فيه موات الأمل ، وأحس خفة فى جسمه ما كان يحسها قبل ذلك ، وتمنى أن يكون له جناحان ، يطير بهما الى الرسول ، فما كان يطيق أن يظن الرسول به الظنون ، أو يحسبه قعد مع القاعدين ، أو تخلف مع المتخلفين . فما تخلف أبو ذر ، وما كان لأبى ذر صاحب رسول الله ، أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله

ونظر ناظر من المسلمين ، فلمح رجلا قادما ، فقال : « يا رسول الله ، ان هـذا الرجل يمشى على الطريق وحده » فقال صلى الله عليه وسلم : « كن أبا ذر »

تأمل القوم الرجل القادم ، ولما اقترب منهم صاحوا : « يا رسول الله ، هو والله أبو ذر » فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « يرحم الله أبا ذر ! يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده »

وخف رسول الله اليه ، ولما قابله شاع السرور فى نفسه ، وقال النبى : « لقد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنبا ، الى أن لقيتنى »

ومد النبى يده ، ووضع متاعه عن ظهره . وسقط أبو ذر على الأرض من التعب والاعياء والعطش ، ثم استسقى ، فأتى باناء به ماء

واستأنف المسلمون زحفهم ، وقدم الرسـول الى تبوك فى ثلاثين ألفا ، والخيل عشرة آلاف فرس ، فأقام بها عشرين ليلة ، يصلى الصلاة ركعتين . ولم يلق كيدا فانصرف ، وقدم الى المدينة فى شهر رمضان سنة تسع ، فقال : « الحمد لله على ما رزقنا فى سفرنا هذا من أجر وحسبة »

أجاب ربنا دعاه

عاد أبو ذر من مكة بعد أن حج مع الرسول حجة الوداع ، مطرقا مفكرا ، وجعل يفكر فى خروجه مع النبى من المدينة الى مكة حاجا ، وفى اتمام النبى مناسك الحج فى حجه هذا ، وفى خطبته الجامعة . وجعل سيال الفكر ينتقل به من مكان الى مكان ، ورن فى أذنه صوت النبى وهو يرتل : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » . فوقع فى نفسه حزن ثقيل ، وأيقن أن النبى الحبيب أتم رسالة ربه ، ولم يبق الا القليل ليترك هذه الدنيا ، ويلحق بالرفيق الأعلى . برم أبو ذر بهذه الأفكار السود التى تلاحقه ، ولم يطق التفكير فى فراق النبى ، وكيف يطيق الفراق ولم يتفارقا منذ قدم الرسول . ليته يفارق هذه الحياة قبله ، ولكن ما شاء الله يكون . وأحس رغبة فى لقاء النبى ، فنهض وترك الدار وانطلق

وقف النبى مع أصحابه يتحدث والجميع ينصتون

اليه ، وأقبل رجلان من الأنصار فلمحا النبى وأصحابه حوله ، فمال أحدهم على الآخر وقال : « أنظر الى أصحاب الرسول ، فهم هم على الدوام قلما ينقصون أحدا » فقال الآخر : « انهم رفقاؤه المقربون » قال : « ألا ترى أنهم ينقصون اليوم واحدا ! » فقال : « ترى من يكون ؟ »

وتفرس الرجلان فى أصحاب الرسول ، فقال الأول : « لا أرى أبا ذر بين القوم » قال : « لعله ذهب لقضاء حاجة » فقال : « أما لاحظت أن النبى يحبه ويقربه ؟ » قال : « أجل ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدئه اذا حضر ، ويفتقده اذا غاب » فقال : « انه جدير بهذا الحب ، فهو رجل صالح » قال : « ان رسول الله يحبه لزهده وتقشفه »

وأقبل بلال على النبى وكان الغضب ظاهرا عليه ، فسلم ثم قال: « يا نبى الله ، لقد قامت بينى وبين أبى ذر مشادة الآن ، فقال لي يابن الحمراء »

وأقبل أبو ذر فقال له النبى : « يا أبا ذر ، بلغنى اليوم بأنك عيرت أخاك بأمه » فقال : « نعم » قال : « يا أبا ذر ، انك امرؤ فيك جاهلية ، يا أبا ذر ارفع

رأسك ، فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمـر فيها ولا أسود ، الا أن تفضله بعمل »

فطأطأ أبو ذر رأسه ، وأيقن أنه أساء الى بلال . وخشى من غضب النبى صلى الله عليه وسلم ، فاضطجع وقال لبلال : « قم فطأ على خدى »

فأسرع بلال الى أبى ذر ، وسلم عليه ، وعفا عنه . والتزم أبو ذر جانب الصمت ، الى أن سأله الرسول : لم سب صاحبه ؟ فقال أبو ذر : « لقد أغضبنى » فقال النبى : « غضبت وكنت قائما فاقعد ، وان كنت قاعدا فاتكىء » .

ودار الحديث بين الجميع ، والتفت الرسول الى أبى ذر ، وقال : « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ، ثقيل فى الميزان ؟ » فقال أبو ذر : « بلى يا رسـول الله » قال : « هو الصمت ، وحسن الخلق ، وترك ما لا يعنيك »

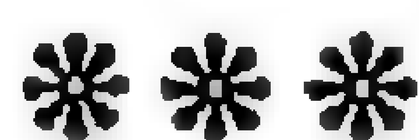
وابتدأ أصحاب الرسول ينصرفون ، فاتجهوا الى دورهم . وبقى أبو ذر مع الرسول ، فسارا حتى بلغا السوق ، فألفيا الناس منكبين على تجـارتهم وبيعهم وشرائهـم ، فالتفت الرسـول الى أبى ذر ، وقال :

« يا أبا ذر ، انى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب »

واستأنفا سيرهما ، والتفت النبى الى أبى ذر، وقال :

ـ يا أبا ذر ، أنت رجل صالح ، وسيصيبك بلاء بعدى فقال : « فى الله ؟ » قال : « فى الله »

فلم يجزع أبو ذر ، ولم يرتجف ، بل نزل رد الرسول على قلبه بردا وسلاما ، وقال قولة الرجل الصالح : « مرحبا بأمر الله »



مرض رسول الله ، واستأذن زوجاته فى البقاء فى بيت عائشة ، فأذن له . وفى صحوة من صحوات مرضه ، طلب من عائشة أن تدعو له أصحابه الذين فى المسجد ، فأرسلت فى طلبهم ، فدخلوا على النبى ، ودخل أبو ذر معهم ، فسلموا عليه ، وجلسوا عنده ، فالتفت اليهم وقال : « مرحبا بكم ، حياكم الله بالسلام ، رحمكم الله ، حفظكم الله ، جبركم الله ، رزقكم الله ، نفعكم الله ، آداكم الله : (قواكم الله) ، وقاكم الله . أوصيكم بتقوى الله ، أوصى الله بكم، أستخلفه عليكم، وأحذركم

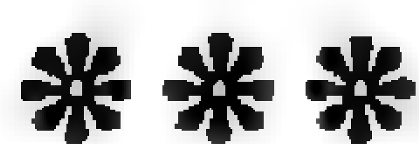
الله ، انى لكم نذير مبين ، ألا تعلوا على الله فى عباده وبلاده ، فانه قال لى ولكم : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » . وصمت الرسول ، وصمت الجميع ، ثم قال : « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟ »

وصمت ، فشمل السكون المكان ، ثم قال : « دنا الفراق والمنقلب الى الله ، والى جنة المأوى ، والى سدرة المنتهى ، والى الرفيق الأعلى ، والكأس الأوفى ، والحظ والعيش المهنى » فقال أحدهم : « يا رسول الله ، من يغسلك ؟ » فقال : « رجال من أهلى ، الأدنى فالأدنى » فقال آخر : « يا رسول الله ، ففيم نكفنك ؟ » فقال : فى ثيابى هذه ان شئتم ، أو ثياب مصر ، أو فى حلة يمانية » فقال ثالث : « يا رسول الله ، من يصلى عليك ؟ »

فبان على أبى ذر التأثر ، وغامت عيناه بالدمع ، ولم يستطع كتمان حزنه ، فانفجر باكيا ، فبكى أصحاب الرسول ، وبكى النبى . وخيم على المكان سحابة كثيفة من الحزن ، فقال الرسول : « مهلا رحمكم الله ، وجزاكم عن نبيكم خيرا ، اذا أنتم غسلتمونى

وكفنتمونى ، فضعونى على سريرى هذا ، على شفة قبرى فى بيتى هذا ، ثم اخرجوا عنى بساعة ، فان أول من يصلى علىّ حبيبى وخليلى جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم اسرافيل ، ثم ملك الموت معه جنوده من الملائكة بأجمعهم . ثم ادخلوا فوجا فوجا فصلوا علىّ وسلموا تسليما ، ولا تؤذونى بتزكيــة ولا برنة ، وليبتــدىء بالصلاة علىّ رجال أهلى ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، واقرءوا السلام مع أصحابى ، واقرءوا السلام على من تبعنى على دينى هذا من قومى الى يوم القيــامة » فقالوا : « يا رسول الله ، فمن يدخلك قبرك ؟ » فقال : « أهلى مع ملائكة كثيرين يرونكم من حيث لا ترونهم »

وصمت الرسول ، وأطرق الجمع فاذا الدار ساكنة سكون الرموس ، ووقع فى نفس أبى ذر حزن شديد ، فقد دنا وقت الفراق ، وأحس رغبة فى البكاء ، ولكن تحجرت عيناه ، وشعر بغصة فى حلقه ، فطأطأ رأســه وخرج ..



أذن بلال للصلاة ، وأقبل المسلمون من كل صوب وحدب الى مسجد الرسول. وأمّ أبو بكر الناس، وابتدأت

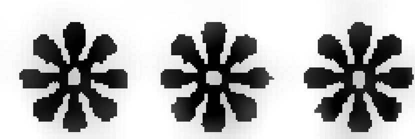
الصلاة ، وخرج الرسول الى المسجد معصوب الرأس ، واتجه الى حيث كان أبو بكر ، فلمح المسلمون النبى فسرت فيهم موجة من الفرح ، وانتعشت نفوسهم لرؤياه . وأحس أبو بكر بحركة بين الصفوف ، فعلم أن النبى قد أقبل ، فتراجع ليخلى للنبى مكانه . ولكن النبى دفعه بيده ليبقيه ، ووقف يصلى خلفه . لمح أبو ذر النبى ، فشعر بنشوة من السرور ، وظهر البشر على وجهه ، لابلال النبى من مرضه . ولما قضيت الصلاة انجفل الناس اليه ، وجعلوا يسلمون عليه . وأسرع أبو ذر فيمن أسرع للاحاطة به ، لسماع در حديثه . وبقى الناس يتجاذبون أطراف الحديث مع النبى ، حتى دخل داره ، فانصرفوا الى دورهم

انصرف أبو ذر قاصدا داره فرحان جذلان ، لابلال خليله من مرضه . وما كان أبو ذر يدرى أنه لن يراه بعد يومه هذا ، ولو علم ذلك لانقلب فرحه ترحا ، وسروره حزنا وغما . وانصرف أبو ذر وهو لا يدرى أن النبى الحبيب ، ما خرج الا ليعطى كل ذى حق حقه ، الا ليستعد للقاء ربه ، وما لأحد فى عنقه شىء . انطلق أبو ذر وهو لا يدرى ما سيصيبه من بلاء بعده ،

وما سيلاقيه من شدة وكرب ، لاستمساكه بوصيته له بقول الحق ، ولو كان مرا ، وبألا يخشى فى الله لومة لائم . انطلق أبو ذر وهو لا يعلم ما يخبئه القدر من مفاجأة فاجعة ، وأنى له أن يعلم ما يخبئه الله من أحداث وشدائد ، ليمتحن بها عباده ، وليجزي كلا بما قدمت يداه ، وان للصابرين لأجرا عظيما

وقابله فى طريقه الى داره رجل من أهله ، فسـألـه أبو ذر : « الى أين ؟ » قال : « اليك » فقال : « لمه ؟ » قال : « وضعت زوجك طفلة »

فصمت أبو ذر قليلا ، فقـال الرجل : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجههُ مسودا وهو كظيم » فقال أبو ذر : « حاشا لله ، انما يولدون للموت ، ويعمرون للخراب ، ويحرصون على ما يفنى ، ويتركون ما يبقى . ألا حبذا المكروهان : الموت والفقر »



ارتفع الصياح فى منزل الرسول ، فالتفت النـاس الى الدار مذعورين واجمين ، وراحوا يتساءلون غير مصدقين : « أمات رسول الله ؟! أمات رسول الله ؟! »
وارتفع صوت فاطمة تردد :

أبتاه يا أبتاه ! أبتاه
أجاب ربا دعاه ... يا أبتاه
الى جبريل ننعاه... يا أبتاه
جنة الفردوس مأواه.. يا أبتاه
من ربه ما أدناه .. يا أبتاه

فارتفعت أصوات الناس بالبكاء فى المسجد ، وراح أبو ذر يذرف الدمع الهتون ، وجعل بعض الصحابة يتكلمون ، والناس يبكون ، ويموج بعضهم فى بعض ولا يسمعون . وأسرع عمر الى حيث كان جثمان النبى ، وكشف عن وجهه ، فألفاه ساكنا فحسبه فى غيبوبة ، فأسرع الى المسجد وراح يخطب الناس :

ــ ان رجالا من الناقمين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى . وانه والله ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران

وأصبح الناس حيارى ، أيصدقون الناعين أم يكذبونهم . وكان أبو ذر يرجو أن يحقق الله مقالة عمر ، وأن يعود النبى ليهلك المنافقين . وأقبل أبو بكر ودخل على النبى وغاب قليلا ، ثم عاد ، فألفى عمر لا زال يصخب ويتوعد المنافقين ، فقال أبو بكر :

ـ على رسلك يا عمر !

وأشار للناس فسكتوا ، ينتظرون القول الفصل . فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » ان الله يقول : « انك ميت وانهم ميتون » . ثم تلا :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ... »

فأجهش عمر بالبكاء ، وأيقن أن رسول الله قد مات . وصاح أبو ذر : « وا خليلاه .. مات رسول الله ، مات الأخ الناصح الشفيق ، مات الجواد الكريم ، مات رسول الله الأمين »

وراح أبو ذر يبحث عن سلوى فلم يجد الا فى كلام الله سلواه وعزاءه ، فجعل يرتل :

« كل شىء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون » . « كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون أجوركم يوم القيامة »

سار بخطا ثقيلة حزينة ، وجعل يردد فى نفسه :

« توفى رسول الله ، والذى نفسى بيده . رحمة الله عليك يا رسول الله »

***

خيم الحزن على مسجد الرسـول ، ووقف عمـر وأبو عبيدة وأبو ذر والمسلمون يتحدثون ، وقد خيم الأسى على الوجوه . ودخل علىّ والعبـاس وأبو بكر الدار ، يعدون العدة لجهاز النبى . وأقبل رجل على عمر ، وقال : « اجتمع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ، لمبايعة سعد بن عبادة خليفة لرسول الله »

فأرسل عمر الى أبى بكر ان أخرج الينا . وعجب أبو ذر لهؤلاء القوم الذين يبايعون رجلا غير على بن أبى طالب ، وغمغم : « ان عليا أحق الناس بها ، فهو أول من صدق الرسول ، وابن عمه ، وختنه على ابنته . كيف يفكر هؤلاء القوم فى مبايعة غيره !؟ »

وخرج أبو بكر فابتـدره عمر : « أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن يولوا الأمر سعد بن عبادة ! »

فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، الى سقيفة بنى ساعدة ..

خرج أبو بكر الى سقيفة بنى ساعدة ، وبقى على والعباس وبعض بنى هاشم ، يشتغلون باعداد جهاز النبى . وأحس العباس أن فى الأمر شيئا ، وأن الناس يفكرون فيمن يخلف رسول الله ، فالتفت الى على ، وقال له : « امدد يدك أبايعك ، فيقول الناس : عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يختلف عليك اثنان » فقال : « أو يطمع ياعم فيها طامع غيرى ؟ » قال : « ستعلم »

وسمع ضرب على الباب بشدة ، فقال على : « من ؟ » قال : « أبو ذر » فقال : « ما هنالك ؟ » قال : « قد بايع الناس لأبى بكر »

ففتح على الباب ، وقال : « كيف ؟ » فقال أبو ذر : « اجتمع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ، لمبايعة سعد ابن عبادة ، فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة الى هناك ، وراح أبو بكر يخطب فى الأنصار ، فقال الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » ، فقال أبو بكر : « فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر الا لهذا الحى من قريش ، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء » .. ثم قال عمر : « والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ،

ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، الا مدل بباطل ، أو متجانف لاثم ، أو متورط فى هلكة » . ثم نادى عمر : « ابسط يدك يا أبا بكر » ، وبسط أبو بكر يده ، فبايعه عمر وهو يقول : « ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفة رسول الله . فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا » . وبايع أبو عبيدة وهو يقول : « انك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ »

صمت أبو ذر ، فطأطأ رأسه ، والتفت اليه العباس وقال : « أما انى قد أمرتكم فعصيتمونى » ، ثم أنشد :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح الا ضحى الغد

فقال على : « وما العمل ؟ »

فقال أبو ذر : « لأجمعن المقداد وسلمان ، وعبادة

ابن الصامت، وأبا الهيثم، وحذيفة وعمارا ، لنرى لنا رأيا»

وأقبل الليل يجر رداءه الأسود ، ثم نشره على الكون ، فحجب كل شيء . واجتمع أنصار على فى الفضاء المجاور للمسجد ، فقال أبو ذر : « ان عليا أحق الناس بالخلافة ، فعلينا أن نعيد الأمر شورى بين المهاجرين ، وأن ننقض بيعة السقيفة »

فسأل أحدهم : « وكيف ذلك ؟ »

فقال أبو ذر : « زعموا للأنصار أنهم أولى بهذا الأمر منهم ، لما كان محمد منهم ، فأعطوهم المقادة ، وسلموا اليهم الامارة . فاذن نحتج عليهم بمثل ما احتجوا على الأنصار ، على أولى برسول الله حيا وميتا»

ودارت قداح الرأى بين الجميع ، وأخيرا أجمعوا على أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين

وبرزت شمس اليوم التالى ، فخرج أبو ذر من داره ، وانطلق الى على فى دار فاطمة بنت رسول الله ، فألفى هناك الزبير بن العوام ، وعمارا ، والمقداد ، وسلمان ، فانضم اليهم ، وأقبل خالد بن سعيد ، وقال لعلى : « فوالله ما فى الناس أحد أولى بمقام محمد منك»

وبلغ أبا بكر وعمر خبر اجتماعهم بدار فاطمة ،

فنهض عمر فى عصابة ، واتجه الى دار فاطمة ، وطلب الى على ومن معه أن يخرجوا فيبايعوا كما بايع الناس، فأبوا أن يجيبوا دعوته

وأقبل أبو سفيان وهو يقول : « أما والله انى لأرى عجاجة لا يطفئها الا الدم . يا لعبد مناف ؟ فيم أبو بكر من أمركم ؟ أين المستضعفان (على والعباس) ؟ أين الأذلان ؟ »

واتجه الى على وقال : « ابسط يدك أبايعك . فوالله لو شئت لأملأنها على أبى فصيل (أبى بكر) خيلا ورجلا »

فامتنع عليه على ، فأنشد :

ولا يقيم على ضيم يراد به
الا الأذلان: عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يشج فلا يرثى له أحد

فنظر أبو ذر الى أبى سفيان نظرة كلها غيظ ، فقد كان يعلم أن أباسفيان ما قال مقالته حبا فى على ، بل حبا فى تأليب المتلمين . لقد وجد الفرصة سانحة ، فأسرع ليهتبلها .. وتحركت شفتا على ، فالتفت اليه

أبو ذر ، فألفاه يقول ما نزل على قلبه بردا وسلاما :
« طالما غَشَشْتَ الاسلام وأهله ، فما ضررتهم شيئا .
لا حاجة لنا الى خيلك ورَجْلك »

وأطرق على مفكرا ، ومر الوقت وئيدا ، وارتفع صوت المؤذن يؤذن :

ـ الله أكبر ، الله أكبر .. الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد ان لا اله الا الله ، أشهد ان لا اله الا الله ، أشهد ان محمدا رسول الله ، أشهد ان محمدا رسول الله

فرفع على رأسه ، والتفت الى فاطمة ، وقال : «أتحبين أن يزول هذا النداء من الوجود ؟ » قالت : « لا »
قال : « اذن ، سأبايع أبا بكر »

خرج على والعباس والزبير وأبو ذر والمقداد وعمار وحذيفة ، وانطلقوا الى حيث كان أبو بكر ، وتقدم الزبير ، فقال أبو بكر له : « ابن عِمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أردت أن تَشُق عصا المسلمين ! »

ـ لاتثريب يا خليفة رسول الله

ومد أبو بكر يده ، فبايعه الزبير ، ثم دخل على فقال الصديق له : « ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته : أردت أن تشق عصا المسلمين »

قال : « لا تثريب يا خليفة رسول الله »

فقام فبايع ..

ووقف أبوبكر يخطب فى الناس، يزهدهم فى دنياهم ، ويدعوهم لأخراهم ، فأرهف أبو ذر أذنيه ، فسمع من خليفة رسول الله قولا عجبا ، سمعه يقول :

ـ ان الله لا يقبل الا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، فانما أخلصتم لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم ، أين كانوا أمس ؟ وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون الذين لهم ذكر القتال والغلبة فى مواطن الحروب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، وصاروا رمما . وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ؟ قد بعدوا ونسي ذكرهم ، وصاروا كلا شيء ، ألا ان الله عز وجل قد ألقى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا والأعمال أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وبعثنا خلفا بعدهم ، فان نحن اعتبرنا بهم نجونا ، وان انحدرنا كنا مثلهم . أين الوضأة الحسنة وجوههم ، المعجبون بشبابهم ؟ صاروا ترابا ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها

الاعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد، أوتسمع لهم ركزا . أين من تعرفون من آبائكم واخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ماقدموا ، فحلوا عليه ، وأقاموا للشقوة أو للسعادة بعد الموت . ألا ان الله لاشريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرا ، ولايصرف به عنه سوءا ، الا بطاعته واتباع أمره . واعلموا انكم عبيد مدينون ، وان ماعنده لا يدرك الا بطاعته . اما آن لأحدكم ان تحسر عنه النار ، ولا تبعد عنه الجنة ؟

استمع أبو ذر الزاهد الى خطبة الخليفة الزاهد ، فانشرح صدره ، ووقع كلامه فى نفسه موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، ونزل أبو بكر من على المنبر ، فأسرع أبو ذر اليه وبايعه ، وأسرع المسلمون اليه ، ووقفوا يتحدثون اليه ، فقال : « والله ماكنت حريصا على الامارة يوما ولا ليلة ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية »

قال أحدهم : إن هذا يرضى الله ورسوله

وقال آخر : لقد ولى الله خيرنا

أبو بكر

وضع أبو ذر خده على كفه ، وحمل رأسه بيده ، وأسبل عينيه وراح يفكر في النبي الراحل ، وعاد بأفكاره الى يوم خرج النبى صلى الله عليه وسلم الى المسجد ، معصوب الرأس فى مرضه الأخير ، يخطب الناس قائلا : « أيها الناس انفذوا جيش اسامة . ان تطعنوا فى امارته ، فقد كنتم تطعنون امارة أبيه من قبله ، وأيم الله انه لمن أحب الناس الىّ بعده » . وراح أبو ذر يسأل نفسه : ترى هل ينفذ أبو بكر جيش اسامة لمحاربة قضاعة ؟ وهل يستمع الى الصحابة الذين يرون استبدال اسامة لصغر سنه ، فهو لم يبلغ العشرين بعد ، بقائد آخر ممن حنكتهم التجارب ؟ ولكن متى كانت السن حائلا دون الاضطلاع بعظائم الأمور فى الاسلام ؟ ألم يفرح النبى باسلام على بن أبى طالب ، وقال لقريش : هذا خليفتى فيكم ، وكان على يومئذ فى الرابعة عشرة من عمره ؟ ألم يدع النبى ربه ان يعز الاسلام بأحد العمرين ، وكان

عمر فى السادسة والعشرين من عمره ؟ ألم يقف سعد بن أبي وقاص يذود عن النبى ، ويحارب الكفار ، ويرمى نباله ، حتى بلغ ما رماه فى يوم ألف نبل ، وكان سعد يومئذ فى السابعة عشرة من عمره ؟ لقد قام الاسلام وانتشر على أكتاف الشباب ، فلم يعترض الناس على اسامة ، مع أن النبى اختاره قبل ان يلحق بالرفيق الأعلى؟ لابد من انفاذ جيش اسامة ، وسينفذه أبو بكر باذن الله ، فما أحسب أبا بكر الا منفذا وصية نبيه

وتململ أبو ذر فى جلسته ، ثم استأنف تفكيره ، فعاد به فكره الى يوم جلس الى النبى فى المسجد يستمع اليه وهو يوصيه ويعلمه . ثم نهض وخرج واتجه الى خليفة رسول الله ، فوجد عنده كثيرا من المسلمين ، يطلبون منه وقف مسير جيش اسامة ، محتجين بأن الأمور قد تبدلت بعد موت الرسول ، ولا يعلم أحد ما يستجد من الأمور اذا بلغ القبائل خبر موت محمد . انتظر أبو ذر رد خليفة رسول الله ، واستعد أن ينفذ وصية رسول الله له ، بأن يقول الحق ولو كان مرا ، وألا يخشى فى الله لومة لائم ، ان لم ينفذ خليفة رسول الله وصية نبيه . ولكن رد أبي بكر الفصل نزل على قلب أبى ذر بردا وسلاما ،

قال الصديق :

ــ والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت السباع تخطفنى لأنفذت بعث اسامة ، كما أمر به رسول الله ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذتها

أثلج صدر أبى ذر هذا القول ، وارتاحت اليه نفسه ، ولكنه لمح عمر مقبلا ، وكان أبو ذر يعلم ان عمر من المعارضين فى امارة اسامة على الجيش ، وكان أبو ذر يعلم مكانة عمر من أبى بكر ، فأوجس خيفة ، ولكن ثقته بأبى بكر لم تتزعزع ، وانتظر ليستمع ما يدور بين الصديقين من حوار ، فطلب عمر وقف مسير جيش اسامة فقال أبو بكر : « لو خطفتنى الكلاب والذئاب ، لا أرد قضاء قضى به رسول الله »

فخرج أبو ذر مسرورا ، وألفى المسلمين مجتمعين منتظرين سفارة عمر ، فوقف معهم.فلما عاد عمر اجتمعوا حوله ، وعلموا ان خليفة الرسول قد عقد العزم على انفاذ جيش اسامة ، فطلبوا من عمر اقتراح اسناد القيادة الى أمير آخر أقدم سنا من اسامة ، فلا يليق ان يكون هذا الحدث قائدا فى جيش به خيرة الصحابة ، بل به عمر نفسه جنديا ، فدخل عمر على أبى بكر ، واقترح اسناد

القيادة الى أميرٍ آخر

سمع أبوبكر هذا ، فثار وغضب ، ووثب على عمر الذى كان الناس يخشونه ويهابونه ، وجذبه من لحيته جذبة شديدة ، وصاح فيه : « ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله ، وتأمرنى أن أنزعه ؟»

فانسل عمر من عند أبى بكر يرتجف ، ويعجب كيف ثار أبو بكر الهادىء هذه الثورة ، وكيف جذبه هـذه الجذبة القوية ، التى أفزعته ، وهزت كيانه

خرج عمر الى الناس مذهولا ، ولمح أبو ذر امارات الذعر على وجه ابن الخطاب ، فعلم كل شيء ، علم ان خليفة رسول الله مستمسك بوصيـة نبيه ، عامل على تنفيذها . وهل كان أبو بكر ليخالف النبى بعد موته ، ولم يخالفه قط فى حياته ؟

وأسرع الناس الى عمر يسألونه : ماذا فعل ؟ فصاح فيهم : « امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله ! »

فانطلق أبو ذر شاكرا ربه ، ان هيأ للاسلام أبا بكر خليفة لرسوله

انطلق أبو ذر ليتجهز للخروج فى جيش اسامة

ونفخ فى البوق ، وأقبل المسلمون ليخرجوا فى جيش اسامة ، وأقبل عمر بن الخطاب وأبو ذر والمسلمون ، وأقبل اسامة أمير الجيش معتليا جواده ، ولمح الجميع أبا بكر مقبلا راجلا ، ومن ورائه عبد الرحمن بن عوف يقود دابته ، وهمَّ اسـامة بأن يترجل ، فأشـار اليه أبوبكر أن يبقى ، فقال اسامة :

ـ ياخليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن

ـ والله لا تنزلن ، والله ولا أركب ، وما علىَّ ان اغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، فان للغازى بكل خطوة يخطوها سبع مئة حسنة تكسب له ، وسبع مئة درجة ترفع له ، وان ترفع عنه سبع مئة خطيئة

وأيقن أبو ذر ان خليفة رسول الله ما فعل ذلك الا ليلقن الجنود الذين تحت امرة اسامة درسا فى احترام القائد ، فمن ذا الذى يجرؤ بعد ان يرى توقير أبى بكر لأسامة إن يتطاول عليه او يعصى له أمرا ؟ !

وقال أبو بكر لأسامة : يا اسامة . اصنع ما أمرك به نبى الله ، ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم ائت ابل ، ولا تقصرن فى شىء من أمر رسول الله ، ولا تعجلن لما خلفت من عهده

ـ سمعا وطاعة

ثم قال أبوبكر : « ان رأيت ان تعينني بعمر، فافعل» . يا لله ! أبو بكر خليفة رسول الله الآمر الناهى ، لايأمر ببقاء عمر ، بل يستأذن قائد الجيش ورئيسه المباشر فى ابقائه ليعينه على أمور المسلمين ؟ يا للدرس النافع الذى ألقاه خليفة رسول الله على كبار الصحابة الذين كانوا جنودا فى جيش اسامة . أيستطيع أحدهم ان يعصى له أمرا ، أو أن يستخف به بعد ذلك ؟ لا والله

فأشـــار اسامة لعمر بن الخطـــاب ، فخرج من بين الصفوف ، وأشار أبو بكر لجيش اسامة بيده ، وقال :

ــ اندفعوا باسم الله

انطلق جيش اسامة قاصدا الشمال ليقتص لمقتل أبيه زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة

وكان الجيش كلما مر بحى من أحيـــاء العرب رعبه وأفزعه ، وكان الناس يقولون كلما رأوا جيش اسامة :

ــ ما خرج هؤلاء بين قوم الا وبهم منعة شديدة

واستمر الجيش فى زحفه حتى بلغ قضاعة ، فأخضعها وقام بها سبعين يوما . وكان اسامة عند ظن النبى به ، فنجحت الحملة ، وجمع اسامة الغنـــائم ، وقفل عائدا منتصرا الى المدينة ، ولم يفقد من جيشه جنديا واحدا

قفل الجيش عائدا الى المدينة ، ولما بلغها ألفى على انقابها حراسا يقيمون بالجيوش حولها ، فسأل المسلمون القادمون عن الخبر ، فعلموا ان كثيرا من الأعراب ارتدوا عن دينهم بعد موت محمد، ورفضوا تأدية الزكاة ، وطمعوا فى المدينة ، واستخفوا بها بعد خروج جيش اسامة ، فأغاروا عليها ، ولكن أبا بكر صمد لهم ، وخرج لقتالهم ، وعين على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص، وعبدالرحمن ابن عوف ، وعبد الله بن مسعود حراسا على المدينة ، فانضم جيش اسامة الى المسلمين ، وبقى بالمدينة يحميها، وانطلق الآخرون لقتال المرتدين، وقاتلوهم حتى انتصروا عليهم ، وأعادوهم الى دين الله ، وأجبروهم على تأدية الزكاة ..

استمر أبوذر طوال خلافة أبى بكر مجاهدا مع المجاهدين ، غازيا مع الغازين لفتح الأمصار ، وتأسيس امبراطورية الاسلام . وبقى أبوذر على زهده وتقشفه ، ولم ينكر على أبى بكر شيئا ، فقد كان أبوبكر الزاهد الأول فى الدولة ، وبقى على ما تركه النبى عليه ، ولقد كانت خلافته كفاحا كلها لاستتباب الاسلام وتمكينه ،

فلم تتهيأ للصحابة الفرص للتبـدل ، وترك زهـدهم وتقشفهم ؛ واقبالهم على الدنيا ، كما تهيأ لهم ذلك فى خلافة عثمان ، فلم يظهر أبو ذر الزاهد فى هذه الحقبة من الزمن على باقى الصحابة ، ولم يتميز عنهم بزهـده وتقشفه واعراضه عن الدنيا وزخرفها ، كما ظهر ذلك واضحا فى عهد عثمان ، لأن تعاليم النبى وأبى بكر كانت لا تزال متغلغلة فى النفوس ، ولأن زهد أبى بكر كان زهدا يحتذى به ، ولأن الأموال لم تكن بعد قد تدفقت على المدينة ، كما تدفقت فى عهد عمر ، وعثمان

قفل الفتنة

مرض أبو بكر مرض الوفاة ، وقبل ان يسلم روحه ؛ كتب عهده لعمر . وبلغ أبا ذر خبر موت أبى بكر، فحزن عليه ، واتجه الى داره فرأى عليا واقفا على بابه ، يرثيه بخطبة بليغة ، وصف فيها ابا بكر خير وصف . قال على :

ـ رحمك الله ياأبابكر،كنت والله أول القوم اسلاما، وأخلصهم ايمانا ، وأشدهم يقينا ، وأعظمهم عناء ، وأحفظهم على رسول الله ، وأحدبهم على الاسلام ، وأحناهم على أهله ، وأشبههم برسول الله خَلقاً وخُلقاً ، وهديا وسمتا ، فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله خيرا ..

صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صديقا (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) يريد محمدا ويريدك ، وكنت والله للاسلام حصنا ، وعلى الكافرين عذابا ، لم تفلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ،

ولم تجبن نفسك. كنت كالجبل الذى لاتحركه العواصف، ولا تزيله القواصف ، كما قال رسول الله : ضعيفا فى بدنك قويا فى الله ، متواضعا فى نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض كبيرا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك

وبقى أبو ذر بعد موت الخليفة الصديق بضعة أيام فى المدينة ، ثم حمل زوجه وابنته وانطلق بهما الى الشام

وفى يوم جلس فى المسجد ، وجلس الناس اليه ، ودار الحديث بينهم ، فقال أحدهم : « يا أبا ذر ، ألا تتخذ ضيعة كما اتخذ أبو هريرة، فقد أصبح واليا على البحرين؟»

فقال أبو ذر: «وما أصنع بأن أكون أميرا ؟ وانما تكفينى كل يوم شربة ماء أو لبن، وفى الجمعة قفير (كيلة) من قمح»

فقال الآخر : « أما بلغكم ما صنع أمير المؤمنين عمر بأبى هريرة ؟ » . فقالوا : « لا .. »

فقال: «لقد أحصى عمر ثروته » ، وقال له: «استعملتك على البحرين وانت بلا نعلين، ثم بلغنى انك ابتعت أفراسا بألف دينار وست مائة دينار» ، فقال أبو هريرة : «كانت

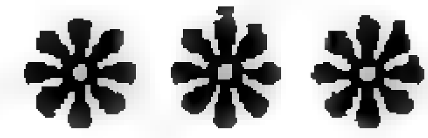
لنا أفراس تناتجت ، وعطايا تلاحقت» ، فقال له عمر : «قد حسبت لك رزقك ومؤنتك ، وهذا فضل فأده» ، فقال أبوهريرة : « ليس لك» . قال عمر: « بلى والله أوجع ظهرك» . ثم قام اليه بالدرة ، فضربه حتى أدماه ، ثم قال له : « ائت بها » ، قال أبوهريرة : « احتسبتها لله » ، فقال عمر: « ذلك لو أخذتها من حلال ، وأديتها طائعا . أجئت من أقصى حجر البحرين تجبى الناس لك ، لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجعت بك أميمة (أم أبى هريرة) الا لرعية الحمر » . فقال أبوذر: « لقد فعل عمر مايرضى الله ورسوله ، فعلى الوالى أن يعمل لمصالح الرعية لا لمصالحه » ..

ودار الحديث بين القوم ، وأقبل رسـول من قبل حبيبة بن مسلمة ، وهو أمير بالشام يسأل عن أبى ذر ، فوجده فى المسجد ، فدخل عليه ، وقال : « قد بعثنى مولاى اليك بثلاث مئة دينار، لتستعين بها على حاجتك»

فقال أبوذر: « قم بها اليه . أو ما وجد أحدا أعز بالله عز وجل منا ؟ ما لنا الا ظل تتوارى به ، وثلة من غنم تروح علينا ، ومولاة لنا تصدقت علينا »

أخذ أبو ذر عطاءه ، فخرج مع عبد الله بن الصامت ،

واستصحب معه جارية ، واتجه الجميع الى السوق ، فجعلت الجارية تقضي حوائج أبى ذر ، وبقى معها بعض الفلوس ، فناولتها اياه ، فجعل أبو ذر ينفقها ، فقال له عبـد الله بن الصـامت : « لو ادخرتها لحاجة بيتك ، وللضيف ينزل بك » . فقال : « ان خليلى عهد الىّ ان أيما ذهب أو فضة أوكىء عليه ، فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه فى سبيل الله »



رحل عمر الى الشام ليتفقد حال الرعية ، وليستمع لأصحاب الحوائج والشكايات ، وليرى مبلغ مايؤديه الولاة للناس من خدمة ، فما بعث عمر الولاة الى الناس ليضربوا أبشارهم ، ويأخذوا أموالهم ، ولكن ليعلموهم ويخدموهم . وبلغ عمر الشام ، ففرح الناس بلقائه فرحا شديدا ، وأقبلوا عليه مسلمين ، ولمح عمر أبا ذر، فأخذه بيده فعصرها . فقال أبو ذر: «دع يدى ، يا قفل الفتنة» فقال عمر : «يا أبا ذر، ما قفل الفتنة ؟» . فقال أبو ذر : « جئت يوما ونحن عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فكرهت أن تتخطى رقاب الناس ، فجلست فى ادبارهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «لاتصيبكم فتنة مادام

هذا فيكم» ، وأشار صلى الله عليه وسلم اليك

واستمر أبو ذر ملازما لعمر ، وفى يوم لاحظ أبو ذر اطراق عمر ، فقال له : « مالى أراك كئيبا حزينا ؟ » . قال : « استعملت بشرا على صدقات هوازن ، فتخلف بشر، فلقيته فقلت له : «ماخلفك ، أما لنا سمع وطاعة؟» فقال : « بلى ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ولى شيئا من أمر المسلمين يأتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم ، فان كان محسنا نجا ، وان كان مسيئا انخرق به الجسر ، فهوى فيه سبعين خريفا » . فقال أبو ذر : « أو ماسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » . قال : « لا .. » . فقال أبو ذر : « أشهد انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « « من ولى أحدا من الناس أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسرجهنم ، فان كان محسنا نجا ، وان كان مسيئا انخرق به الجسر ، فهوى فيه سبعين خريفا ، وهى سوداء مظلمة » ، فأى الحديثين أوجع لقلبك ؟ .. قال عمر : « كلاهما قد أوجع قلبى ، فمن يأخذها (أى الخلافة) بما فيها ؟ » . فقال أبو ذر : «من سلت الله أنفه (أى جدعه) ، وألصق خده بالارض . أما

انا لا نعلم الا خيرا ، وغشى ان وليتها من لا يعدل فيها ألا تنجو من اثمها »

وانطلق عمر يجوب الشام ، يفتش على الاعمال ، ويحاسب الولاة ، ويواسى الفقراء ، ووقف فى المسلمين يخطب : « ألا انى قد وليت عليكم ، وقضيت الذى علىَّ فى الذى ولانى الله من أمركم ، ان شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا مالديكم ، فجندنا لكم الجنود ، وهيأنا لكم الفروج ، وبوأناكم ، ووسعنا عليكم مابلغ فيئكم ، وما قاتلتم عليه من شأمكم؟ فمن علم علم شيء ينبغى العمل به ، فليبلغنا نعمل به ان شاء الله ، ولا قوة الا بالله »

وطلب الناس من عمر أن يأمر بلالا بالاذان ، فانه لم يؤذن لأحد بعد رسول الله ، وانهم فى اشتياق لسماع صوته الندى ، فالتفت عمر الى بلال وقال له : « أذن يا بلال » ؛ فقام فأذن فى الناس بصوته القوى الحنون ، الذى طالما سرى فى المدينة على عهد الرسول ، فأطرق أبو ذر وانتقل به سيال الفكر الى يثرب ، فرأى بعين خياله النبى وأصحابه حوله ، فهاجت ذكرياته ، وسالت عبراته ، وبكى عمر لذكرى النبى الحبيب ، حتى بل لحيته

أبو ذر المحدث

كلف الفقراء بأبى ذر لزهده وتقشفه ، وأصبحوا يجتمعون عنده ، ويجلسون اليه ، يستمعون الى أحاديث النبى وأبى بكر . وكان أبو ذر محدثا من الطراز الأول ، وكان يمتاز بفصاحة لسانه العربى ، وكان مثالا للمسلم التقى ، فأصبح قبلة الناس كافة . وفى يوم من الأيام جلس فى المسجد ، والتف به الناس ، وجعل يحدثهم عن النبى كعادته ، فقال أحدهم : « ياليتنى رأيت النبى » . فقال أبو ذر : قال رسول الله : « أشد أمتى لى حبا قوم يكونون بعدى ، يود أحدهم انه فقد أهله وماله وانه رآنى » . واستأنف أبو ذر حديثه ، فتحدث عن الاسراء ، فسأل أحدهم : « وكيف أسرى بالنبى ؟ » . فقال أبو ذر : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فرج عن سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدرى ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا ، فأفرغه فى صدرى ، ثم أطبقه ،

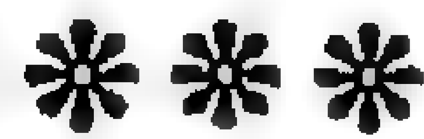
ثم أخذ بيدى ، فعرج بى الى السماء الدنيا . فلما جئت الى السماء الدنيا ، قال جبريل لخازن السماء : «افتح» قال : « من هذا ؟ » . قال : «جبريل» . قال : « هل معك أحد ؟ » . قال : « نعم ، معى محمد صلى الله عليه وسلم » . فقال : « أرسل اليه ؟ » . قال : « نعم » فلما فتح علونا السماء الدنيا ، فاذا رجل قاعد على يمينه أسودة(جمع سواد وهو الشخص) وعلى يساره اسودة ، اذا نظر قبل يمينه ضحك ، واذا نظر قبل يساره بكى ، فقال : « مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح » . قلت لجبريل : «من هذا ؟» . قال : «آدم» ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه (أرواح أبنائه) فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار، فاذا نظر عن يمينه ضحك ، واذا نظر قبل شماله بكى».

ونظر أبو ذر، فرأى رجلا غريبا مارآه قبل يومه هذا ، فسأله : « من أنت ؟ » . فقال : « نافع الطاحى » . قال : « وممن أنت ؟ » . قال : « من أهل العراق » . فقال : « أتعرف عبد الله بن عامر ؟ » . قال : «نعم» . فقال : « فانه كان يتقرأ معي ويلزمنى ، ثم طلب الامارة ، فاذا قدمت البصرة فتراء له فانه سيقول : لك حاجة ؟

فقل له : أنا رسول أبى ذر اليك ، وهو يقرئك السلام ، ويقول لك : انا نأكل من التمر ، ونشرب من المـاء ، ونعيش كما تعيش »

وأقبل أحد أصدقاء أبى ذر ، فسلم وجلس ، فقال له أبو ذر : «متىعدت منالمدينة ؟» . قال : «اليوم» . فقال : « وما عندك ؟ » . قال : « سمع عمر بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية ، فوقع فى نفس عمر انمعاوية قد زود والده فى عودته بمال . وجاء أبوسفيان مسلما ، فقال له عمر : « اجزنا يا أبا سفيان » . فقال : « ما اصبنا شيئا فنجزيك » فمد عمر يده ، ونزع خاتما من اصبع أبى سفيان ، وبعثه الى هنـد زوجه ، وأمر الرسول ان يقول لها باسم زوجها : « انظرى الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما » فما لبث ان عاد الرسول بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر فى بيت المال . فقال أبو ذر : « والله انى لأعجب لهؤلاء الصحابة الذين يتكالبون على الدنيـا ويقيمون للذهب والفضة وزنا ، بعد أن سمعوا رسول الله يقول : « مالى وللدنيا ، ما مثلى ومثل الدنيا الا كراكب سار فى يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها » .

فقال أحد الحاضرين : « قال الله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . فقال أبو ذر : « ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود ، وهو يسعى لدار الغرور. ما لنا وزينة الحياة الدنيا ؟.. فقد قال سبحانه وتعالى : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »



بلغ نافع الطاحى البصرة ، واتجه من فوره الى دار الوالى عبد الله بن عامر ، ودخل عليه وسلم ، فسأله عبد الله عن حاجته ، فقال نافع : « كنت بالشام ، وقابلت أبا ذر ، وقد بعثنى رسولا اليك »

فلما سمع عبد الله بن عامر اسم أبى ذر ، خشع قلبه ، فقال نافع : « وهو يقرئك السلام ، ويقول لك انه يأكل من التمر ، ويشرب من الماء ، ويعيش كما تعيش »

فلما سمع عبد الله بن عامر مقالة الرجل ، بان عليه التأثر ، فحل أزراره ، ثم أدخل رأسه فى جيبه ، ثم بكى حتى ملأ جيبه بالبكاء .

الثائر

بلغ الشام ان أبا لؤلؤة ، أحد الموالى الذين قدموا من الكوفة الى المدينة طعن عمر فى أثناء تكبيره للصلاة فقتله ، وان عمر ترك الأمر شورى بين على ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير وطلحة . فقال أبو ذر فى نفسه : «انها لعلىّ ، والله ما أحد أحق بالخلافة منه » ، وعقد العزم على ان يرحل الى يثرب ، ليكون بجوار صديقه ، كما كان بجوار النبى الحبيب ..

وحمل أبو ذر زوجته وابنته ، ولحق بالقافلة المنطلقة الى يثرب ، وراح طوال الطريق يفكر فى على ، وما سينال المسلمون من العدل على يديه ، فيطمئن قلبه ، ويشيع الرضا فى نفسه . وفى الطريق تقابلت القافلة بأخرى ، قادمة من يثرب الى الشام ، فعلم أبو ذر أن عثمان بن عفان اختير خليفة للمسلمين ، فأطرق واكتأب وغمغم : « عثمان بن عفان رجل صالح ما فى ذلك شك ،

ولكنه ليس من القدرة والعزم والحزم بحيث يخلف عمر ، أو يملأ الفراغ الذى تركه عمر »

وراحت القافلة تخب خبا حتى دخلت يثرب ، فاتجه أبو ذر الى على ، وسلم عليه ، وجلس ودار الحديث بينهما ، فعلم أبو ذر كيف اختير عثمان ، وكيف كان على متهاونا فى حقوقه ، فالتفت اليه وقال : « انها مشيئة الله ، ولا راد لمشيئته »

وبقى أبو ذر بالمدينة ، ورأى ميل عثمان الى بنى أمية ، وتغلغل نفوذهم فى الدولة الاسلامية ، وانقلاب الحكم فى عهده ملكا له مظاهر الملك : من عظمة ، وترف ، وتهافت على الدنيا . ورأى كثيرا من الصحابة يتغيرون ، فالزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف اقتنوا الضياع والدور ، وابتنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ، فرفع سمكها ، ووسع فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات ، فقام أبو ذر لايخشى خليفة ، ولا يهاب أميرا ، يدعو الناس الى الزهد ، ويهاجم عثمان

وفى يوم علم ان عثمان أعطى مروان بن الحكم خُمس خَراج افريقية ، والحارث بن أبى العاص ثلاث مئة ألف درهم ، وزيد بن ثابت مئة ألف درهم ، فجلس فى المسجد

وراح يتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فىسبيل‌الله فبشرهم بعذاب أليم» . وبلغ مروان ان أبا ذر يهاجمه ويهاجم عثمان ، فرفع ذلك الى عثمان أميرالمؤمنين ، فنادى مولاه نائلا، وأمره أن يدعو أبا ذر اليه ..

فدخل أبو ذر على عثمـــان ، الذى ما كاد بصره يقع عليه حتى قال : « يا أبا ذر ، اتته عما يبلغنى عنك» . قال : « وما بلغك عنى يا أمير المؤمنين ؟ » . فقال : « بلغنى انك تحرض الناس علىَّ » . قال : « وكيف ذلك ؟» . فقال : «انك لا تقرأ فى المسجد الا : «والذين يكنزون الذهب والفضة » . قال : « أينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله ، وعيب من ترك أمر الله ؟ .. فوالله لأن أرضى الله بسخط عثمان ، أحب الىَّ وخير لى من أن أسخط الله برضاه »

فبان الغضب على وجه عثمان ، ولكنه لم يدر بما يرد عليه ، فلزم الصمت ، وطال صمته ، فخرج أبو ذر من عنده وهو أكثر عزما على عيب من ترك امر الله

وتقابل أبو ذر وعلىٌّ كثيرا ، وازدادت مهاجمة أبى ذر لعثمان ، فأحفظ ذلك الخليفة ، وراح ينتهز الفرصة ،

ليبعد أبا ذر ، وواتته الفرصة المرتقبة ، فاهتبلها ولم يدعها تفلت ، ففى يوم من الأيام دخل أبوذر علىعثمان ، وكان كعب الأحبار ـ وكان يهوديا ثم أسلم ـ جالسا عنده ، فسلم عليهما وجلس ، ودار الحديث بينهم ، وقال عثمان لصاحبه وهو يحاوره : « أيجوز للامام أن يأخذ من المال ، فاذا أيسر قضى ؟ » . فقال أبو ذر : « لا يجوز » . فقال كعب الأحبـــار : « لابأس بذلك » . فالتفت أبو ذر الى كعب ، وقال : « يابن اليهودية ، أتعلمنا ديننا ؟ » . فالتفت كعب الى عثمان ، فقــال عثمان : « قد كثر أذاك لي ، وتولعك بأصحابى »

وارتفع الجدل بينهما واشتد ، فقال عثمان محنقا :

ـ ألحق بالشام

الاشـــتراكى

بلغ أبو ذر الشام ، وكان معـاوية يبنى الخضراء ، وآلاف العمال يحملون مواد البناء ، يروحون ويغدون ، ووقف معاوية يتطلع الى الخضراء مزهوا ، ولمحه أبوذر، فاتجه اليه ، وقال : « يا معاوية ، ان كانت هذه هى من مال الله ، فهى الخيـانة ، وان كانت من مالك ، فهى الاسراف » ..

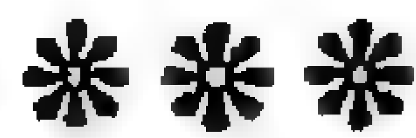
فأشاح معاوية بوجهه، ولم يرد عليه ، فاستأنفأبوذر سيره ، وبلغ المسجد فجلس ، وأقبل بعض نفر من المسلمين يشكون معاوية لأبى ذر ، ويخبرونه انه قد انقضى الحول ولم يعطهم عطاءهم ، فأطرق أبو ذر قليلا، ثم نهض ، فتطلع اليه الناس ، فقال : « لقد حدثت اعمال ما أعرفها ، والله ما هى فى كتاب الله ، ولا سنة نبيه . والله انى لأرى حقا يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذبا ، وأثره بغير تقى . يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء ، وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل

الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.
يا كانز المال ، اعلم ان فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أوموت ؛ والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم ؛ وأنت الثالث ، ان استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن . ان الله عز وجل يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . يا كانز المال ، ألا تعلم انه اذا مات الانسان انقطع عنه عمله الا من ثلاث : من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان ربى عرض علىَّ أن يجعل بطحاء مكة ذهبا ، فقلت لا يارب ، ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه ، فأتضرع اليك وأدعوك ، أما اليوم الذى أشبع فيه ، فأحمدك وأثنى عليك » . اتخذتم ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألمتم الاضجاع على الصوف الاذربى (المنسوب الى أذربيجان) ، وكان رسول الله ينام على الحصير ، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير.

يا كانز المال ، ألا تعلم انه ما من يوم يصبح العباد

فيه الا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا ؟

استمع الناس اليه ، فولع الفقراء به ، وأوجس الأغنياء منه خيفة



شاهد جندب بن مسلمة الفهرى التفاف الناس حول أبى ذر ، فتمتم قائلا : « انها الفتنة الكبرى » ، وانطلق الى معاوية حتى أتاه ، فأخبره وقال له :

ـ ان أبا ذر مفسد عليكم الشام ، فتدارك أهله ان كان لكم حاجة فيه ، فأطرق معاوية يفكر ، أيأخذه بالشدة ؟ لا. ان ذلك مما يزيد النار لهيبا ، أيشكوه الى عثمان ؟ ولكن ما يقول عثمان ، عجز عن تقويم أحد رعاياه ؟ لخير له ان يبعده عن الشام ، وان يبعثه فى احدى الغزوات ، فما أحب الغزو فى سبيل الله الى نفسه ، واطمأن معاوية الى ذلك فأرسل اليه ، فجاء ووجد عند معاوية أبا الدرداء ، وشداد بن أوس ، وعبادة بن الصامت ، فانضم اليهم ، وقال معاوية :

ـ لقد كتبت الى عمر ـ رحمه الله ـ فى شأن فتح قبرص ، وقلت له : ان قرية من قرى حمص يستمع أهلها

نباح كلاب قبرص ، وصياح دجاجهم ، وهونت عليه الأمر ، لكن عمر ــ رحمه الله ــ كتب الى عمرو بن العاص : « صف لى البحر وراكبه » . فكتب اليه : «هو خلق كبير يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ؛ ان ركد أقلق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، وراكبه دود على عود ؛ ان مال غرق ، وان نجا برق » ، فكتب عمر الىَّ : « والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » . ولقد عدت الآن وألححت على عثمان فى فتح قبرص ، فأجابنى على خيار الناس وطوعهم ، والأمر الآن لكم ، فاختاروا ما ترون .

فقال أبوذر: « رباط يوم فى سبيل الله ، خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل . لقد دعينا الى الجهاد فى سبيل الله ، فما علينا الا تلبية النداء » ..

ووافق على الغزو بعض الصحابة الموجودين ، فاستعمل عليهم معاوية عبد الله بن قيس حليف بنى فزارة

وأعدت المراكب وصعد أبو ذر الى مركبه ، وأمر القائد بالسير ، فراحت المجاذيف تعمل، وتحرك الاسطول الاسلامى للغزو

انطلق الاسطول ، ولما حل من البحر بين السحر والنحر، صفرت الرياح ثم زأرت ، فجعل الموج يصفق لسماع أصواتها فيطرب ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعـد ويقتـرب ، فأشرفت نفوس المسلمين على التلف من خوفها واعتلالها ، وتراءى لهم المنون ، وخرست من القلق ألسنتهم . ولما هدأ البحر من ثورته ، وبش بعد حدته ، وجد أبو ذر لسانه فجعل يتلو: « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه »

وقضى الله بالنجاة ، فبلغ الأسطول قبرص ، ونزل بها ودارت معركة بين الغزاة والقبرصيين، فتقارعت السيوف، وراح المسلمون يحاربون كأسود كواسر ، فلم يسع أهل قبرص الا التسليم ، ودفع الجزية للمسلمين ..

وتم فتح قبرص ، فلم تعد هنالك حاجة لبقاء أبى ذر بها ، فعاد الى الشام ، ليقلق معاوية ، وليقض مضاجع الأغنياء ..

وعلم ابن سبأ ، وكان يلقب بابن السوداء ، وكان قد ورد الى الشام من المدينة ، وكان يهوديا ثم أسلم — علم ان أبا ذر عاد الى الشام فمشى اليه ، وكان ابن سبأ يدعو لأهل البيت ، ويعمل على تحريض الناس على عثمان وعماله،

فلما قابل أبا ذر عمل على ايغار صدره على معاوية ، فقال له : « يا أبا ذر ، ألا تعجب من معاوية ، يقول المال مال الله ، ألا ان كل شى لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس ، ويمحو اسم المسلمين ؟ »

فقال أبو ذر : « أو قد قال ذلك ؟ » . قال : « اجل، انه يقول ذلك فى كل خطبة » . فقال : « والله لأعتبن عليه » ..

ونهض أبو ذر من فوره الى قصر معاوية ، وطلب الاذن بالدخول . ولما دخل ، هش له وبش ، ولكن أبا ذر لم يلتفت الى كل ذلك ، بل اندفع الى غرضه ، وقال : « يامعاوية ، مايدعوك الى ان تسمى مال المسلمين مال الله ؟ » . قال : « يرحمك الله يا أبا ذر .. ألسنا عباد الله ؟ والمال ماله » . فقال : « فلا تقله » . قال : « سأقول مال المسلمين » . وهمّ أبو ذر بالانصراف ، فقال معاوية : « يا أبا ذر ، ما الذى أوجدك علينا ؟ » قال : « ان أموال الفىء من حقوق المسلمين ، وليس لك ان تختزن منها شيئا ، ولكنك خالفت الرسول وأبا بكر وعمر ، وكنزتها لك ولبنى أمية » . فقال : « يا أبا ذر، انى لا أكنز المال كما تظن ، ولكنى أدخره لأصرفه فى

وجوه المصالح العامة ، وانى لا أبخل بالمال على المسلمين ، فما تركت من سبيل يجب ان ينفق فيها الا أنفقت فيها » قال : « انك لاتريد بعطاياك وجه الله ، بل تريد أن يقال انك جواد ، وقد قيل : يامعــاوية لقد أغنيت الغنى ، وأفقرت الفقير » . فقال : « يا أبا ذر ، ارجع عما انت فيه ، فانك تقود الناس الى فتنة لايعلم الا علام الغيوب مداها » . قال : « والذى نفسى بيده ، لا أرجع حتى يبذل الأغنياء المعروف »

ثم ولاه ظهره وخرج ، وأطرق معاوية قليلا ، ثم راح يذرع الحجرة ذهابا وايابا ، ثم أمر باحضار صرة بها ثلاث مئة دينار ، ونادى أحد خدمه ، وأمره ان يلحق بأبى ذر ، وان يعطيه الصرة ، فأسرع الخادم خلفه ، ولما لحق به فى الطريق ، قال له : « ان معاوية بعث اليك بهذه » . فنظر أبو ذر الى اليد الممدودة بالصرة ، وقال : « ان كانت هذه من عطائى الذى حرمتمونيه عامى هذا قبلتها ، وان كانت صلة فلا حاجة لى فيها »

وظل الخادم واقفا والصرة فى يده ، فقال أبو ذر : « ردها عليه ، ولا حاجة لى فيها » . وانطلق حتى بلغ المسجد ، فانجفل الناس اليه ، فقال : « يامعشر الأغنياء ،

أنفقوا مما أعطاكم الله ، ولا تغرنكم الحياة الدنيـا ، واجعلوا فى أموالكم حقا للسائل والمحروم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مال الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ » يا معشر الأغنياء ، لقد نهى الله عز وجل عن الكنوز ، وقال رسول الله : «تبا للذهب ! تبا للفضة ! تبا للذهب ! تبا للفضة!» فشق ذلك على أصحابه ، كما شق ذلك عليكم ، فقالوا : « فأى مال نتخذ ؟ » فقال لهم عمر رحمة الله عليه : « أنا أعلم لكم ذلك » ، فدخل على رسول الله ، وقال له : « ان أصحابك قد شق عليهم وقالوا : « فأى المال نتخذ؟» فقال النبى الحبيب : « لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وزوجة تعين أحدكم على دينه »

ان أموال الفىء من حقوق المسلمين ، ولكن معاوية قد احتجنها ، ليصرفها على خدمه وحراسه وأبهته ، ونسى معاوية انه لا يحل له من مال الله الا حلتان : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما يحج به ويعتمر ، وقوته وقوت أهله ؛ كرجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم . هذا ما سنه عمر الصالح ، فلم لا يتبعه معاوية ؟.. ان مال الفىء

ينبغى أن يقسم على المسلمين ، كما كانت الحال فى عهد النبى وأبى بكر وعمر . أصبحت الضياع والدور تقتنى ، وتصرف لتجميلها آلاف الدنانير ، ويترك المسلمون . لقد حج عمر ، فأنفق فى ذهابه ومجيئه الى المدينة ستة عشر دينارا ، فالتفت الى ولده ، وقال : «لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا » . ان عمر أميرالمؤمنين يصرف ستة عشر دينارا فى حجة فيستكثرها ، ومعاوية يوزع الآلاف لبنى أمية ، فيستقلها ! »

فهمس أحد الجالسين بالقرب منه : « انك تخوض فى معاوية ، فحاذر » .

فالتفت أبوذر اليه ، وقال : « أوصانى خليلى أن أقول الحق ولو كان مرا ، وألا أخشى فى الله لومة لائم ، وانى أدعو دعاءه : « اللهم انى أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » . ثم استأنف :

« تفنن القوم فى اعداد الطعام ، وأصبح الرجل يأكل من ألوانه حتى يلتمس لذلك دواء يمرئه ، وقد خرج النبى من الدنيا ولم يملأ بطنه فى يوم من طعامين ، كان اذا شبع من التمر ، لم يشبع من الخبز ، وما شبع

آل محمد غداء وعشاء من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات ، حتى لحق بالله . وكان يمر بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال ثم هلال لايوقد فى شىء من بيوته نار ، لا لخبز ولا لطبخ »

فسأل واحد : « بأى شىء كانوا يعيشون؟» . قال : «بالتمر والماء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لا محالة ، فثلث لطعامه ؛ وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه» . وقال صلى الله عليه وسلم : « اياكم والبطنة ، فانها مكسلة عن الصلاة ، ومفسدة للجسم ، ومؤدية الى السقم ، وعليكم بالقصد فى قوتكم؛ فهو أبعد من السرف ، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة»

ولا تحسبوا ان صحابة الرسول كانوا يزهدون فى الدنيا لأنهم لم يجدوا ماينفقونه ، لا ، بل ارضاء لله ؛ وطمعا فيما وعدهم الله به ، لقد قالت حفصة لعمر بعد أن وسع الله من الرزق ، وبعد أن تدفقت الأموال على المدينة : « يا أمير المؤمنين ، لو اكتسيت ثوبا هو ألين من ثوبك ؛ وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك ، فقد وسع الله من الرزق ، وأكثر من الخير» فقال : « انى سأخاصمك الى

نفسك ، أما تذكرين ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من شدة العيش ، وكذلك أبو بكر ؟ » . فما زال يذكرها حتى أبكاها ، فقال لها : « أما والله لأشاركنهما فى مثل عيشهما الشديد ، لعلى أدرك عيشهم الرضى » .
كان رسول الله يأخذ خمس الغنائم ، فلم يكنز شيئا ولم يدخر شيئا ، بل كان يتصدق بما يصل اليه ، ولا يجد بعدها ما يأكله ، وقد رأته عائشة يتألم من الجوع ، فقالت له : « يارسول الله ، ألا تستطعم الله فيطعمك ؟» وبكت لما رأت به من جوع . فقال : « والذى نفسى بيده لو سألت ربى ان يجرى معى جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها . ياعائشة : ان الدنيا لاتنبغى لمحمد ولا لآل محمد. ياعائشة، ان الله لم يرض لأولى العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا والصبر على محبوبها ، ولم يرض الا أن يكلفنى ماكلفهم ، فقال : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » . والله ما لى بد من طاعته ، وانى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ، ولا حول ولا قوة الا بالله

الخـــروج

استمر أبو ذر فى دعوته ، واشتد فى مهاجمة الأغنياء ، وجعل ينهى عن الكنز ، ويطلب مواساة الفقراء ، وتوزيع المال على المسلمين كافة،كما كانت الحال فى عهد النبى ، وأبى بكر وعمر ، فوجد الفقراء على الأغنياء ، والتجأ الأغنياء الى معاوية ، وجعلوا يشكون اليه ما يلقونه من الناس ، بسبب دعوة أبى ذر ، فأرسل معاوية فى طلبه ، وقد عقد العزم على ان يقطع دابر هذه الفتنة التى قد تقوض سلطانه وتحطم آماله

دخل أبو ذر على معاوية بقامته الطويلة النحيلة ، وقد ارتسمت على وجهه الأسمر آيات العزم ، فقام معـاوية لاستقباله ، وأجلسه بجواره ، ثم نادى على الخدم ، وأمرهم أن يحضروا الطعام ، فمد الخوان ، ووضع عليه ما لذ وطاب من ألوان الطعام الشهية ، التى تتحلب لها الأفواه ، وطلب معاوية من أبى‌ذر أن يأكل، فأبى وقال : « طعامى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، والله لا أزيد عليه شيئا حتى ألقاه»

ثم التفت الى معاوية ، وقال : « قد غيرتم : ينخل لكم الشعير ، ولم يكن ينخل، وخبزتم المرقق. جمعتم ادامين، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم فى ثوب ، وراح فى آخر ، ولم تكونوا هكذا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ــ لقد انقضى ذلك العهد ، ونحن هنا فى بلد الأعاجم، فان لم نظهر أمامهم بالمظهر اللائق ، استخفوا بنا

ــ أما أنا فلن أغير من هيئتى شيئا ، عسى ان أكون أقربكم مجلسا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وذلك انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، من خرج من الدنيا كهيئة ماتركته فيها » . وانه والله مامنكم من أحد الا وقد تشبث بشىء منها غيرى

ــ يا أبا ذر ، لقد اشتكى الأغنياء منك ، وقالوا انك تؤلب الفقراء عليهم

ــ انى أنهاهم عن الكنز

ــ ولم ؟

ــ لقوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة

ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فانى أبشرهم بعذاب الله

ـ ان الآية نزلت فى أهل الكتاب

ـ بل نزلت فينا وفيهم

ـ انى آمرك أن تكف

ـ والله لأستمرن على دعوة الناس الى الزهد ، وعلى تحذيرهم الكنز ، ولأبشرن الكانزين بعذاب النار

ـ خير لك أن تنتهى عما انت فيه

ـ والله لا أنتهى حتى توزع الأموال على الناس كافة

فقال معاوية مهددا :

ـ يا أبا ذر ، هذا فراق بينى وبينك ، فحاذر

ـ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا

توضأ أبو ذر ، وجلس فى المسجد ، وجعل يقرأ بعض ما تيسر من القرآن ، وأقبلت ابنته وعليها صوف ، سعفاء الخدين ومعها قفة لها ، فمكثت بين يديه ، وقالت :

ـ يا أبتاه ، زعم الخازنون والزارعون ان أفلسك هذه بهرجة

ـ يابنية ، ضعيها ، فان أباك أصبح بحمد الله لايملك من صفراء ولا بيضاء الا أفلسه هذه

وانصرفت ابنته ، وأقبل معاوية يحف به خدمه وحشمه

ثم نودى لصلاة الجمعة ، فصـعد معاوية المنبر ، يخطب الناس ، فقال :

ــ انما المال مالنا ، والفىء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه

فقام رجل اليه ممن حضر المسجد ، فقال :

ــ كلا ، انما المال مالنا ، والفىء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه ، حاكمناه الى الله بأسيافنا

فأطرق معاوية قليلا ، وخطر فى نفسه انه ما لقنه ذلك الا أبو ذر . فهل يبطش معاوية به ، ليجعله عبرة للناقمين عليه ؟ ألا يكون البطش به دافعا الى اندلاع لهيب الثورة ؟ فكر معاوية الداهية ، فعلم ان خير حل هو مصانعته ، فأرسل الى الرجل بعد أن قضيت الصلاة ، وقال للناس :

ــ ان هذا أحيانى ــ أحياه الله ــ سمعت رسول الله يقول : « سيكون من بعدى أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون فى النار كما تتقاحم القردة »

وانقضت صلاة الجمعة بسلام ، وانصرف معاوية بوجه باسر ، يعض على نواجذه ، ودخل قصره وهو يُرْغِى

ويزيد ، ودخل عليه بعض أهله فأنكروه ، وقال له أحدهم:

ــ ما بك ؟ ومالى أراك اليوم محنقا ؟

ــ اعضل بى أبو ذر ، والله ليفسدن القوم علينا ان تركناه ..

ــ والله لأكفينكه

ــ لن تفلح الشدة معه

ــ من يدرى ؟

وانطلق الرجل الى دار أبى ذر ، وطرق بشدة ، وفتح الباب ، وتطلع أبو ذر الى الطارق فلم يعرفه ، ولكن عرف الشر فى وجهه فقال : « خيرا ؟ »

ــ بل شرا يا أبا ذر ، ان لم تنته عن مهاجمة معاوية ، وتأليب الناس عليه ، فلن تمشى على الأرض بعد اليوم

فقال أبو ذر بصوت كله هدوء ، وكله اطمئنان :

ــ انى لا أهاب الموت ولا أخشاه

ــ يا أبا ذر دع ما أنت فيه ، ولاتغضب معاوية خير لك

ــ اغضاب معاوية خير لى من اغضاب الله

ــ ثب الى رشدك ، ولا توغر صدور القوم علينا ، وكف عن دعواك

ــ والله لا أكف حتى يوزع المال على جميع المسلمين

ـ والله انا نعلم لحساب من تعمل ، والله ان لم تكف لنصبن عليك سوط عذاب

ـ والله لا أكف حتى ترجعوا الى كتاب الله

فأطرق الرجل وفكر فى استعمال سلاح الاغراء عسى ان يلين ذلك الرجل الذى لا يلين ، فقال :

ـ يا أبا ذر ثكلتك أمك ، ان عليا لايستطيع ان يجزيك أو يمنع عنك أذانا . أما معاوية فأمواله كالبحر الزاخر ، وهى طوع بنانك

ـ لا حاجة بى الى أموالكم ، وانى لا أطمع الا فى رضا ربى وما عند الله

ـ لقد أعذر من أنذر ، انك تسير الى حتفك بظلفك ..

ـ الموت أحب الىّ من الحياة

حاقت الخطوب بأبى ذر من كل جانب ، وأصابه بلاء شديد على أيدى بنى أمية ، فالاضطهاد وقع به ، والأموال منعت عنه ، فلم يهن ، ولم يضعف ، ولم يتزعزع ، بل ازدادت حملته على الأغنياء شدة ، وناوأ معاوية جهارا ، وفى يوم وقف يخطب الناس :

ـ ان بنى أمية تهددنى بالفقر والقتل ، والفقر أحب الىّ من الغنى ، ولبطن الأرض أحب الىّ من ظهرها .

يأمعشر الأغنياء : أنفقوا مال الله على عباده ، ولاتقولوا « يد الله مغلولة » ، و « ان الله فقير ونحن أغنياء » . « انما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجرعظيم ، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ؛ والله شكور حليم ، عالم الغيب والشهادة العزيزالحكيم»

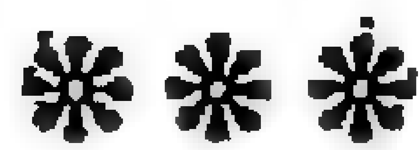
استمر أبو ذر فى الحملة على كانزى المال ، وفى الدعوة الى تقسيم المال على جميع المسلمين كافة ، وأسدل الليل سدوله فانطلق الى داره ، وفى الطريق تذكر انه ترك ابنته وقد اشتد المرض بها ، فأغذ السير ، وأحس كأن صوتا خافتا ينبعث من جوفه يردد : « انما أموالكم وأولادكم فتنة .. انما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وأخذ الهمس يشتد ، حتى أمسى صوتا يدوى فى أذنيه . ولما بلغ الدار دخل مسرعا ، فألفى ابنته مسجاة ، وبجوارها أمها وقد علا وجهها الاظلام ، وغامت عيناها بالدمع . ولما رأته سالت عبراتها ، وأجهشت بالبكاء ، فأطرق وغمغم :

ـــ انا لله وانا اليه راجعون

ثم جلس وأطرق ، فعاد به فكره الى يوم كان فى يثرب

مع النبي قبل ان تسلم قريش ، يوم أغار القرشيون على المدينة صباحا ، وقتلوا ابنه ثم ولوا هاربين ، وتذكر مواساة النبي له فغمغم :

ـ لاحول ولا قوة الا بالله ، انما يولدون للموت ويعمرون للخراب



استأنف أبو ذر دعوته ، وراح يبشر الكانزين بعذاب أليم . وجعل معاوية يفكر فى التخلص منه ، والقضاء عليه بأية وسيلة ، فهداه تفكيره الى انه لو استطاع ان يثبت الكنز على ذلك الذى يعيب الكنز ، ويحمل على الكانزين ، لكان فى ذلك قضاء عليه مبرم ، وراح يقدح زناد فكره ، حتى وضع الخطة التىاطمأنالیها ، وحسب انها ستصل به الى غرضه المنشود ، وراح يسدد ضربته

دعا معاوية رسولا ، وأعطاه ألف دينار ، وأرسله بها فى جنح الليل الى أبى ذر ، ثم لما صلى معاوية الصبح ، دعا رسوله الذى أرسله اليه ، فقال له :

ـ اذهب الى أبى ذر ، فقل له أنقذ جسدى منعذاب معاوية ، أرسلنى الى غيرك ، وانى أخطأت بك ..

فانطلق الرسول ، وقابل أبا ذر ، وقال له ما لقنه معاوية ..

فقال أبو ذر : يابنى ، قل له : « والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار . ولكن أخرنا ثلاثة أيام ، حتى نجمعها

علم معاوية ان أبا ذر أنفق الألف دينار على الفقراء ، عقب تسلمها ، وانه لم يبقها فى داره ليلة واحدة ، فأيقن ان فعله يصدق قوله ، وان سهمه الذى سدده قد طاش

حاول معاوية اللين مع أبى ذر ، فلم يفلح ، وحاول الشدة ، فلم يفلح ، وحاول شراءه ، فلم يفلح ، فلم يبق أمامه الا اخراجه من الشام ، فكتب الى أمير المؤمنين عثمان :

« ان أبا ذر تجتمع اليه الجموع ، وقد ضيق علىّ ، وأعضل بى ، ولا آمن ان يفسدهم عليك ، فان كان لك فى القوم حاجة فاحمله »

فرد عليه عثمان : « ان الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق الا ان تثب ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أبا ذر الىّ ، وابعث معه دليلا ، وزوده وارفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فانما تمسك ما استمسكت »

البـــلاء

بلغ كتاب أمير المؤمنين معاوية ، فحمل أبا ذر على بعير عليه قتب يابس، ومعه خمسة من الصقالبة ، يطيرون به ، ولا يدعونه يستريح فى الطريق ، حتى تسلخت بواطن أفخاذه ، وكاد يتلف ، وأصابه كرب شديد ، فأطرق وقد ارتسم على محياه الألم ، وحز فى نفسه أن يلقى كل هذا البلاء ، لأنه يدعو الى المعروف ، واتباع ماجاء به كتاب الله . ثم تذكر يوم كان يسير مع النبى فى دروب يثرب ، وقد قال له الرسول : « يا أبا ذر انك رجل صالح ، وسيصيبك بلاء بعدى » فيسأله : « فى الله ؟ » فيجيبه : « فى الله » فيقول : « اذن مرحبا بأمر الله » ، فامتلأ قلبه ثباتا واطمئنانا ، وانقشعت سحابة الألم التى كانت تغيم على وجهه ، وحل محلها هدوء وصفاء

وبلغ الركب المدينة ، ورأى أبو ذر المجالس فى أصل جبل سلع ، فقال :

ـ بشر أهل المدينة بغارة شعواء ، وحرب مذكار
ودخل أبو ذر على عثمان ، وكان عنده على وبعض المسلمين ، فلما رآه عثمان قال :

ـ لا أنعم الله بك عينا يا جنيدب

ـ أنا جنيدب ، وسمانى رسول الله عبد الله ، فاخترت اسم رسول الله الذى سماني به على اسمى

ـ ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك ؟

ـ لقد كنز الناس فبشرتهم بمكاو من نار

ـ انت الذى تزعم أنا نقول ان يد الله مغلولة ، وان الله فقير ونحن أغنياء ؟

ـ لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم مال الله على عباده ، نصحتك فاستغششتنى ، ونصحت صاحبك فاستغششنى

ـ كذبت ، ولكنك تريد الفتنة وتحبها . قد أنغلت الشام علينا

ـ اتبع سنة صاحبيك ، لا يكون لأحد عليك كلام

ـ مالك وذلك ؟ لا أم لك

ـ والله ما وجدت فىَّ عذرا الا الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

فظهر الغضب فى وجه عثمان ، وقال :

ـ أشيروا عليّ في هـذا الشيخ الكذاب ، اما ان أضربه أو أقتله ، فانه قد فرق جماعة المسلمين ، أو أنفيه من أرض الاسلام .. فقال علي :

ـ أشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون : « فان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لايهدي من هو مسرف كذاب »

فأجاب عثمان بجواب غليظ ، اتهم فيه أبا ذر بأنه عين لعلي ، فأجاب علي بجواب أغلـظ ، وارتفع الجدل ، فدخل الناس بينهما ، وأخيرا قال عثمان :

ـ اني أحظر على الناس ان يقاعدوا أبا ذر أو يكلموه

وخرج أبو ذر من عند عثمان ، فكثر عليه الناس ، كأنهم لم يروه من قبل ذلك ، وفي يوم جلس في المسجد ، وأقبل رجل وسأله :

ـ ان مصدقي عثمان ازدادوا علينا ، أنغيب عنهم بمقدار ما ازدادوا علينا ؟

ـ لا ، قف مالك وقـل : « ماكان لـكم من حق فخذوه ، وما كان باطلا فذروه » ، فما تعدوا عليك جعل في ميزانك يوم القيامة

فقال فتى من قريش :

ـ أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتيا ؟

ـ أرقيب أنت عليّ ؟ فوالذى نفسى بيده لو وضعتم الصمصامة (السيف) هنا (وأشار الى عنقه) ، ثم ظننت انى منفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تجزوا ، لأنفذتها

ثم استأنف أبوذر دعوته ، وراح يحمل على الأغنياء ، ويدعو الى مواساة الفقراء وتقسيم المال على المسلمين ، وبلغ عثمان ان الناس تجتمع به فأرسل اليه ، فأقبل ، وكان كعب الأحبار وبعض المسلمين عنده ، فقال عثمان :

ـ يا أبا ذر ، ألا تكف عما أنت فيه ؟

ـ حتى يواسى الأغنياء الفقراء

فالتفت عثمان الى الجالسين وقال :

ـ أرأيتم من زكى ماله ، هل فيه حق لغيره ؟

فقال كعب : « لا يا أمير المؤمنين .. »

فدفع أبو ذر فى صدر كعب ، وقال :

ـ كذبت يابن اليهودية ، ثم تلا : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »

فقال عثمان : « يا أبا ذر ، لايمكنني حمل الناس على الزهد ، ولكن علىّ أن أقضي بينهم بحكم الله ، وأرغبهم فى الاقتصاد »

فقال أبو ذر : « لا نرضى عن الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ، ويحسنوا للجيران والاخوان ، ويصلوا القرابات » ..

فقال كعب الأحبار : « من أدى الفريضة ، فقد قضى ما عليه » ..

فرفع أبو ذر العصا ، فدفع بها فى صدر كعب

وأتى بتركة عبد الرحمن بن عوف من المال ، فنصبت البدرة ، حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم

فقال عثمان : « انى لأرجو لعبد الرحمن خيرا ، لأنه كان يتصدق ، ويقرى الضيف ، وترك ما ترون »

فقال كعب : « صدقت يا أمير المؤمنين ، وقد كسب طيبا ، وأنفق طيبا ، وترك طيبا ، لقد أعطاه الله خير

الدنيا والآخرة »

فشال أبوذر العصا ، فضرب بها رأس كعب فشجه ، وقال : « يابن اليهودى ، تقول لرجل مات وترك هذا المال : ان الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة ، وتقطع على الله بذلك ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه ، فقال : « يا أبا ذر » . فقلت : « لبيك يارسول الله » ، فقال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة الا من قال كذا وكذا ، عن يمينه ، وشماله ، وقدامه ، وخلفه ، وقليل ما هم » . ثم قال : «يا أبا ذر» فقلت : « نعم يارسول الله بأبى أنت وأمى » . قال : « مايسرنى ان لى مثل أحد أنفقه فى سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين » . قلت : « أو قنطارين يارسول الله » . قال : « بل قيراطين » . ثم قال : « يا أبا ذر ، انت تريد الأكثر ، وأنا أريد الأقل » ، فرسول الله يريد ذلك ، وانت تقول يابن اليهودية ان لابأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف »

واستوهب عثمان كعبا شجته ، فوهبه ، فقال عثمان لأبى ذر : « ما أكثر أذاك لى ، دار عنى وجهك » ..

— أسير الى مكة ؟

ـ لا والله

ـ فتمنعنى من بيت ربى أعبده فيه حتى أموت ؟

ـ اى والله

ـ فالى الشام ؟

ـ لا والله

ـ البصرة ؟

ـ لا والله ، فاختر غير هذه البلدان

ـ لا والله ، ما أختار غير ما ذكرت لك ، ولو تركتنى فى دار هجرتى ما أردت شيئا من البلدان ، فسيرني حيث شئت من البلدان

ـ فاني مسيرك الي الربذة ..

فى الـــربذة

دعا عثمان مروان ، وأمره ان يخرج بأبى ذر الى الربذة ، ونهى الناس ان يصحبوه فى مسيره أو يشيعوه ، وامتطى أبو ذر راحلة ، وامتطى مروان أخرى ، وراحا يخترقان طريق يثرب ، وصدع الناس لأمر أمير المؤمنين ، فتجافوه ، وجعل أبو ذر يدير عينيه فيما حوله ، ويلقى عليها نظرة وداع ، وكان كلما مر بمكان تذكر ما مر به من أحداث فى عهد الرسول ، فهاجت الذكريات فى نفسه وأطرق حزينا . ولكن رن فى أذنيه الحوار الذى دار بينه وبين الرسول : « سيصيبك بلاء بعدى » . « فى الله ؟ » ، « مرحبا بأمر الله »

فرفع أبو ذر رأسه ، وانطلقا حتى أغمض الأفق جفنيه عليهما ..

وأقبل على ومعه ابناه الحسن والحسين وعقيل أخوه ، وعبد الله بن جعفر ، وعمار بن ياسر ، وعلموا ان عثمان

أمر باخراج أبى ذر من يثرب ، فأسرعوا خلفه ، وأغذوا السير حتى لحقوا به خارج المدينة ، وأقبل على ليحادثه ، فحاول مروان أن يمنعه ، وقال :

ـ يا على ، ان أمير المؤمنين قد نهى الناس ان يصحبوا أبا ذر فى مسيره أو يشيعوه ، فان كنت لم تدر بذلك ، فقد أعلمتك ..

فلم يلتفت على اليه ، فتقدم نحو أبى ذر ، وحاول مروان ان يحول بينهما ، فحمل على عليه بالسوط بين أذنى راحلته ، وقال : « تنح نحاك الله الى النار »

فلوى مروان عنان راحلته ، وترك أبا ذر لهم ، وقفل عائدا الى أمير المؤمنين ليشكو لِه ما لقى من ابن أبى طالب

ومضى على ورفقاؤه مع أبى ذر ، حتى بلغوا الربذة ، فنزلوا عن رواحلهم ، وجلسوا يتحدثون . وحان وقت الوداع ، فنهض على ، وأحس أبو ذر غصة فى حلقه ، وضم عليا الى صدره ، فانهمر الدمع من عينيه وغمغم :

ـ رحمكم الله أهل البيت ، اذا رأيتك يا أبا الحسن وولديك ، ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم

أسرع مروان الى عثمان ، فشكا اليه ما فعله على بن أبي طالب ، فنهض عثمان وقال : « يامعشرِ المسلمين ،

من يعذرني من علي ، رد رسـولي عما وجهتـه له ، وضربه ، والله لتعطينه حقه »

ورجع علي بعد أن ترك أبا ذر بالربذة ، فاستقبله الناس وقالوا له : « ان أمير المؤمنين عليك غضبان ، لتشييعك أبا ذر »

قال علي : « غضب الخيل على اللجم »

وأتى المساء ، وجاء علي الى عثمان ، فقال عثمان : « ما حملك على ما صنعت بمروان ؟ واجترأت علي ورددت رسولي وأمري ؟ »

ـ أما مروان ، فانه استقبلني يردني ، فرددته عن ردي ، وأما أمرك فلم أرده

ـ أو لم يبلغك اني قد نهيت الناس عن أبي ذر وتشييعه ؟

ـ أو كل ما أمرتنـا به من شيء ـ نرى طاعة الله والحق في خلافه ـ اتبعنا فيه أمرك ؟ بالله لا نفعل

ـ أقد مروان ..

ـ وما أقيده ؟..

ـ ضربت بين أذني راحلته

ـ أما راحلتي فهي تلك ، فان أراد أن يضربها كما

ضربت راحلته فليفعل ، أما أنا فوالله لئن شتمنى لأشتمنك أنت مثلها ؛ بما لا أكذب فيه ولا أقول الا حقا

ـ ولم لايشتمك اذا شتمته ؟ فوالله ما أنت عندى بأفضل منه

فغضب علي وقال : « الى تقول هذا القول ؟ وبمروان تعدلنى ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وأمى أفضل من أمك

فغضب عثمان ، واحمر وجهه ، فقام ودخل داره ، وانصرف على ، فاجتمع اليه أهل بيتـــه ، ورجال من المهاجرين والأنصار ، يحاولون تهدئته

وفى صبيحة اليوم التالى ، اجتمع الناس الى عثمان ؛ فشكا اليهم عليا ، وقال : « انه يعيبنى » ..

فدخل النـــاس بينهما ، وعادت الحال الى ما كانت عليه ، قبل نفى أبى ذر ، وقال على لعثمان : « والله ما أردت تشييع أبى ذر الا لله »

***

وبلغ معاوية ان عثمان قد نفى أبا ذر الى الربذة ، فقصد زوجة أبى ذر ليخرجها اليه ، فخرجت ومعهـــا جراب ، فالتفت معاوية الى من حوله وأشار الى الجراب

وقال ليشهر بأبى ذر :

ــ انظروا الى هذا الذى يزهد فى الدنيا : ما عنده ؟

فقالت امرأة أبى‌ذر: «أما والله ماهودينار ولا درهم ، ولكنهافلوس كان‌اذا خرج‌عطاؤه‌ابتاع‌منه فلوسالحوائجنا»

وانطلقت امرأته حتى لحقت به بالربذة ، فألفتــه قد ابتنى مسجدا ، ورأت عثمان قد أقطعه صرمة من‌الابل ، وأعطاه مملوكين ، وأجرى عليه كل يوم عطاء

وفى يوم من الأيام ، اتجه نعيم الرياحى الى الربذة ، فوجد زوجة أبى ذر ، فسألها عن زوجها ؟ فقالت :

ــ هو ذاك فى ضيعة له

فانتظر نعيم ، وأقبل أبو ذر يقود بعيرين ، وكان‌قاطرا أحدهما فى عجز صاحبه ، وفى‌عنق‌كل واحد منهما قربة ، فوضع القربتين ، واقترب منه نعيم وقال : « يا أبا ذر : ما كان من الناس أحد أحب الى أن ألقاه منك ، ولا أبغض ان القاه منك »

ــ لله أبوك ، وما يجمع هذا ؟

ــ انى كنت وأدت فى الجاهلية ، وكنت أرجو فى لقائك ان تخبرنى ان لى توبة ومخرجا ، وكنت أخشى فى لقائك ان تخبرنى انه لا توبة لى

ـ أفي الجاهلية ؟

ـ نعم

ـ عفا الله عما سلف

وأقبل موسم الحج فكثر مرور الناس بالربذة ، وكانوا يصلون بمسجد أبي ذر ، ويتحدثون معه ، وأقبل بعض الحجيج ، فوجدوه قائما يصلي ، فانتظروه حتى فرغ من صلاته ، ثم أقبل بوجهه فقال : « هلموا الى الأخ الناصح الشفيق »

ثم بكى واشتد بكاؤه ، وقال : « قتلني حب يوم لا أدركه »

ـ وما يوم لا تدركه ؟

ـ طول الأمل

وجلس ، فجلس الناس اليه ، ورأى بعض القوم ان يخوضوا في عثمان ارضاء له ، ولكنه نهاهم ، ونهض وسار خلفه غلامه ، وكانت عليه حلة ، وعلى غلامه مثلها ، فسأله المعرور بن سويد عن ذلك ؟ فقال أبوذر:

ـ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اخوانكم خولكم جعلهم الله قنية تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه من طعامه ، وليلبسه من لباسه ،

ولا يكلفه ما يغلبه ، فان كلفه ما يغلبه فليعنه

واستأنف أبو ذر سيره ، حتى بلغ داره ، فجلس أمامه على قطعة جوالق ، فأقبل نحوه رجل كان قد رأى زوجته ، فألفاها شعثة ، سحماء ، سوداء ، فجلس اليه ، وقال له :

ـ انك امرؤ ما تبقى لك ولد

ـ الحمد لله الذي يأخذهم من دار الفناء ، ويدخرهم في دار البقاء

ـ يا أبا ذر ، لو اتخذت امرأة غير هذه ؟

ـ لأن أتزوج امرأة تضعني ، أحب الي من امرأة ترفعني ..

ـ لو اتخذت بساطا ألين من هذا ؟

ـ اللهم غفرا ، خذ مما خولت ما بدا لك

وذهب الحجيج ، وبقى أبو ذر وزوجته وغلاماه في الربذة ، وجعل أبو ذر يقطع الوقت في التعبد ، ودارت عجلة الزمن دورة ، فاستأذن عثمان في الحج ، فأذن له ، فانطلق حتى بلغ مكة ، فقام عند الكعبة ، وقال :

ـ يأيها الناس ، انا جنـدب الغفارى ، هلموا الى الأخ الناصح الشفيق

فاكتنفه الناس فقال :

ـ أرأيتم لو أن احدكم اراد سفرا ، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟

قالوا : بلى

قال : فان سفر طريق القيامة أبعد ما تريدون ، فخذوا مايصلحكم

قالوا : وما يصلحنا ؟

قال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، وصوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، وصلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور . كلمة خير تقولها ، أو كلمة شر تسكت عنها ، لوقوف يوم عظيم . تصدق بمالك ، لعلك تنجو من عسيرها . اجعل الدنيا مجلسين : مجلسا فى طلب الحلال ، ومجلسا فى طلب الآخرة ، الثالث يضرك ولا ينفعك ، لاترده . اجعل المال درهمين : درهما تنفق على عيالك من حله ، ودرهما تقدمه لآخرتك ، الثالث يضرك ولا ينفعك ، لا ترده

وحج أبو ذر واتجه الى منى ، فبينا هو جالس اذ أقبل رجال وأخبروه ان عثمان صلى أربعا فى السفر ، فظهر على أبى ذر الغضب ، وقال قولا شديدا ، ثم قال :

ـ صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى

السفر ، فصلى ركعتين ، وصليت مع أبى بكر وعمر ، فكيف أتم عثمان الصلاة ؟

وقام فصـــلى أربعـــا ، فجعـــل الموجودون يرمقونه متعجبين ، ولما فرغ من صلاته ، قالوا له :

ــ عبت على أمير المؤمنين شيئا ، ثم تصنعه ؟

ــ الخلاف أشد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا يوما وقال : « انه كائن بعدى سلطان فلا تذلوه ، فمن أراد أن يذله فقد خلع ربقة الاســلام من عنقه ، وليس بمقبول منه توبة ، حتى يسد ثلمته التى ثلم ، وليس بفاعل »

إلى دار البقاء

عاد أبو ذر الى الربذة ، وذهب الحاج وأقفرت الطرق من الناس ، فانقطع أبو ذر للعبادة ، وفى يوم أحس وهنا وضعفا ، وشعر بالموت يزحف نحوه ، فالتفت الى زوجه ، وقال : « دنا الفراق »

ـ ما بالك اليوم ؟

ـ والله لنتركن دار الغرور الى دار البقاء ..

وتصرمت الأيام ، ومرض أبو ذر ، وازدادت وطأة المرض عليه ، فأسبل عينيه ، وراح فى غيبوبة ، ولما أفاق فتح عينيه ، فألفى زوجه تبكى والدموع تنهمر على خديها ، فغمغم : « ما يبكيك ؟ »

ـ ما لى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ، ولا يد لى بدفنك ، وليس عندى ثوب فأكفنك فيه ؟

ـ لا تبكى وابشرى ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لايموت بين امرأين مسلمين

ولدان أو ثلاثة ، فيصبران ويحتسبان ، فيريان النار أبدا! » . أفلم يمت أولادنا وصبرنا واحتسبنا ؟ !

وصمت أبو ذر واستأنفت زوجه البكاء ، فقال :

ـ انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفر أنا فيهم : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الارض ، تشهده عصابة من المؤمنين »

وليس من أولئك النفر أحد الا وقد مات فى قرية أو جماعة ، وانى انا الذى أموت بفلاة ، والله ما كذبت ولا كذبت فأبصرى الطريق

ـ انى وقد انقطع الحاج وتقطعت الطرق ؟

ـ انظرى !

فخرجت وتركته وراحت تشتد الى الكثيب ، ارضاء له ، ثم ترجع اليه فتمرضه ، فيأمرها ان تنظر ، فتشتد الى الكثيب ، فبينا هى على الكثيب اذ بها ترى رجالا على رواحلهم ، كأنهم الرخم ، فألاحت لهم فأسرعوا اليها ، ووضعوا السياط فى نحور رواحلهم ، يستبقون اليها ، ولما بلغوها قالوا : « مالك يا أمة الله ؟ »

قالت : « امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه »

قالوا : « ومن هو ؟ »

قالت : « أبو ذر »

قالوا : « صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

قالت : « نعم »

ـ بأبى أنت وأمى يا أبا ذر

وأسرعوا اليه ، حتى دخلوا عليه ، فسلموا غليه ، وقال بصوت خفيض : « لو كان عندى ثوب يسعنى كفنا أو لامرأتى ثوب ، لم أكفن الا فى ثوب هو لى أو لها ، وانى أنشدكم الله ، لايكفنى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا أو نقيبا »

فتلفت القوم بعضهم الى بعض ، فليس من القوم أحد الا وقد قارف من ذلك شيئا ، الا فتى من الأنصار ، فقال : « أنا أكفنك فى ردائى هذا ، وفى ثوبين فى عيبتى من غزل أمى حاكتهما لى »

ـ انت صاحبى فكفنّى ..

وحشرج أبو ذر حشرجة الموت ، ولفظ النفس الأخير ، وكفّنه القوم ..

وأقبل ابن مسعود منصرفا من الكوفة ، فعلم بموته ، فصلى عليه وبكى وقال : « صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك»

الاشتراكية فى الإسلام

ان الباحث فى النظم الاقتصادية السائدة اليوم يرى العالم أجمع يسير نحو الاشتراكية قدما ، فلم يعد الناس يطيقون رؤية الاموال تتكدس فى أيدى بضعة نفر من الاغنياء ، بينما ملايين من البشر يتضورون جوعا

المذاهب الاقتصادية الحديثة :

وقبل ان ابدأ الكلام عن الاشتراكية عامة ، واشتراكية الاسلام بوجه خاص ، أرى لزاما على ان أسرد هنا خلاصة المذاهب الاقتصادية الهامة التى سادت أوربا ، من وقت ان تكونت الدول الحديثة فى القرن السادس عشر ، حتى تسهل علينا التفرقة بين مذهب وآخر ، وحتى نلم بالتطورات التى طرات على المذاهب الاقتصادية، والعوامل التى اثرت فيها ، حتى وصلت آخر الامر الى اشتراكية متهافتة لا تستطيع الوقوف على قدميها ، الى جانب اشتراكية الاسلام ثابتة الدعائم ، موطدة الاركان :

(ا) مذهب التجاريين :

تكونت الدول العظمى فى القرن السادس عشر، وكشفت اسبانيا امريكا ، فتدفق الذهب والفضة الى اسبانيا ، فبلغت أوج مجدها وعظمتها . وحسبت الدول الاخرى ان

هذين المعدنين هما أعظم الثروات نفعا ، فراحت كل دولة تعمل على الاكثار منهما ، واصدرت التشريعات تحذر من تصديرهما ، حتى لا يقل ما هو موجود منهما فيهـــا . وراحت كل دولة تعمل على تنمية مواردها ، وتنظيــــم تجارتها الخارجية شغلها الشاغل ، واصبح لها المقام الاول لتحصل بذلك على الفرق بين قيمتى الصادرات والواردات بالعملة الذهبية . ولتدعيم هذا النظام ، فرضـــت على الواردات رسوما جمركية عالية ، واهتمت بالصناعة وعملت على ترقيتها ، لكي يتسنى لكلّ دولة أن تكفى نفسها بنفسها، وتصدر الكائض من انتاجها الى غيرها من الدول

جعل هذا النظام الدول كالتاجر سواء بسواء ، تعمــل على ترويج بضائعها وتصديرها الى الخارج ، حتى أصبحت تجارتها الخارجية شغلها الشاغل ، وأصبح لها المقام الاول فيها ، وسمى هذا المذهب الاقتصادى ــ الذى همــــه اغتناء الشعوب من تكديس المعادن النفيسة ــ مــذهب التجاريين ، وقد ساد هذا المذهب ذلك العصر ، ورفرف على اوربا بأسرها ، على الرغم من مثالبه الجمة . ومن مثالبة : تقييد حرية الافراد ، وتحريم تصدير الغلال (حتى ساءت حالة الزراعة) واقامة العقباب فى سبيل التجارة

(ب) المذهب الحر :

ظل مذهب التجاريين مسيطرا على اوربا حتى ظهــر فولتير ، وروسو ، وغيرهما ، يدعون الى الحرية ويمجدونها فاثرت دعوتهم فى الاقتصاديين ، فقـــــام فى انجلترا آدم سميث « ابو الاقتصاد السياسى » وفى فرنسا الطبيعيون (الفزيوكرات) ، قاموا بنقد مذهب التجاريين ، ودعــوا الى حرية التجارة ، وتحطيم الحواجز الجمركية ، وكان

شعارهم « دعه يعمل ، دعه يمر » «Laisser Faire» «Laisser Passer» أى دع كل فرد يعمل فى حرية ، فلو ترك كل فرد ليعمل لمصلحته ، دون تدخل من الحكومة ، لخدم مصلحته على أكمل وجه ، ولخدم مصلحة المجموع فى الوقت نفسه . ولقد لقيت هذه الاراء من الحكومات أذنا واعية فطبقتها ، وأطلقت الحرية للاشخاص ، وازالت الحواجز الجمركية ، وعرف هذا المذهب بالمذهب الحر

وكان من ثمار تطبيقه ظهور فئة الاغنياء الرأسماليين ، وفئة الفقراء المعدمين ، وساعد على توسيع الشقة بين الفئتين ، ظهور الثورة الصناعية ، واختراع الآلات ، وانتشار استعمالها فى الصناعات الكبيرة ، الامر الذى در على ارباب الاعمال ارباحا وفيرة ، فزادوا على غناهم غنى ، وتخفيض اجر العامل لاحلال الآلات محله ، فزاد على فقره فقرا ..

(ج) الاشتراكية :

وتلفت بعض المعنيين بشئون الطبقات فهالهم انحطاط طبقة العمال ، وارتفاع طبقة الاغنياء على اكتافهم ، وعزوا الشقاء المخيم على العالم ، وذلك التفاوت الكبير بين الراسماليين والعمال ، الى تطبيق المذهب الحر ، ذلك المذهب الذى اطلق الحرية لنفر من الرجال ، فراحوا يعملون على كسب المال ، وتكديس الثروات بين أيديهم ، دون الالتفات الى العمال الذين هم منبع هذه الثروات . وقد هيأ لهم ذلك المذهب الجائر الفرصة لتعسف العمال؛ فهم يحددون لهم أجر الكفاف ، والعمال يقبلون ذلك مضطرين تحت ضغط الحاجة ، ليدفعوا غائلة الجوع عنهم وعن عيالهم . وقد قال المشفقون على الطبقات الفقيرة :

ان النتيجة الطبيعية للمذهب الحر هى الاخلال بالتوازن الاجتماعى ، وان الثروات العظيمة التى يكدسها المولون ليست ثمرة جهودهم وحدهم ، بل ثمرة جهود العمال أيضا ، وان السلع الناتجة هى اشتراك بين جهود العمال ورأس المال ، فينبغى على ذلك ألا يستحوذ صاحب رأس المال على الربح جميعه ، ويضيفه الى رأس ماله لينميه ، بل العدل يقضى أن يكون رأس المال اشتراكا بين العمال والمولين ، وقد عرف هذا المذهب الجديد بالاشتراكية

وكان رسول الاشتراكية ، كارل ماركس ، الالمانى ، وقد اخذ كثيرا من آرائه الاقتصادية عن اقتصاديى القرن التاسع عشر ، ولكنه تميز عنهم بفلسفته الاجتماعية ، فقد أسس مذهبه الاقتصادى على أساس مذهب سياسى يعرف بالمادية التاريخية . وهذا المذهب يرجع جميع التطورات والتقلبات التى تصيب المجتمع فى زمان ما ، ومكان ما ، الى كفاح الطبقات لتحسين حالها : ففى الازمان الغابرة ، قام الكفاح بين الاحرار والارقاء ، الى ان تحرر الرقيق . ثم انتقل الكفاح الى الاشراف والعامة ، فقامت الثورة الفرنسية على أكتاف العامة ، حتى انمحق الأشراف. ونشأت طبقة متوسطة تملك اموالا ، وراحت هذه الطبقة تنمى هذه الاموال بتشغيل العمال ، ولم يلبث ان نشأ الكفاح بينها وبين العمال ، ولا يزال هذا الكفاح ناشبا حتى الان . ويرى كارل ماركس قياسا على ما مضى من كفاح بين الطبقات ، أن هذا الكفاح بين الراسماليين والعمال سيبقى ناشبا حتى يتلائم نظام الملكية مع نظام الانتاج ،أى حتى تصير الملكية اشتراكية ، لان الانتاج اشتراك بين العامل وبين رأس المال

وان الدارس للمذاهب الاشتراكية ، يرى اختلافا كبيرا بينها . فثم اختلاف بين الاشتراكية الديمقراطية ،

والاشتراكية الوطنية «النازية» ، والشيوعية ، والماركسية « اشتراكية رأس المال » . ولكنها على الرغم من هـــذا الاختلاف تتحد جميعا فى خواص ثلاث ، هى :

١ ـ تقويض النظام الحالى ، وتشييد نظام جديد على أنقاضه ، يضمن توزيع الثروة توزيعا عادلا بين الافراد

٢ ـ الغاء الملكية الخاصة « ثروات الانتاج » : كرأس المال ، والارض ، والمصانع ، على أن تستولى الدولة على هذه الملكيات جميعها ، وتجعلها ملكية عامة تديرهـــا للمصلحة العامة

٣ ـ يشتغل الافراد لحساب الدولة ، بأجور تعطى لهم بالتساوى ، على أساس قيمة العمل الذى ينتجه كل منهم، وتبعا لذلك لا يكون هناك دخل للافراد سوى الاجور

(د) الشيوعية :

وارى قبل ان انتقل من هذا الموضوع ، أن أذكر نبذة عن الشيوعية ، حتى يمكن التفرقة بينها وبين الاشتراكية، وحتى نلم بجميع المذاهب الاقتصادية الهامة :

فالشيوعية أقدم المذاهب الاشتراكية ، وتتميز عنهـا بشيئين :

أولهما ـ أنها تحرم الملكية الخاصة فى جميع صورها ، فهى لا تفرق بين ثروات الانتاج وثروات الاستهلاك ، كمـا تفعل الاشتراكية ، بل تنادى بالغاء الملكية الخاصة الغاء تاما . .

وثانيهما ـ أن لها فى التوزيع قاعدة خاصة ، وهى : « لكل على حسب حاجته ، ومن كل على حسب قدرته » ، أى ان على كل فرد ان يعمل على قدر قبيوته ، وأن على الحكومة ان تمده بما يسد حاجته

هذه هى خلاصة المذاهب الاقتصادية التى سادت العالم منذ تكونت الدول العظمى الى اليوم ، وان الباحث فى هذه النظريات والمذاهب يرى بجلاء ان التطرف كان صفتها اللازمة ، فلا قسط ولا اعتدال : فمذهب التجاريين غولى فى تطبيقه ، والاشتراكية المتباينة غالت فى طلباتها . ونرى ان كلا من انصار هذه المذاهب يزعم أن مذهبه هو المذهب الذى يضمن السعادة والرفاهية للجميع ، ولكن اغلب هذه المذاهب جرب وطبق ، فلم يأت بالنتيجةالمرجوة ولم يزدد العالم به الا سوءا على سوء

الاشتراكية ركن من أركان الدين الاسلامى :

ولو عاد أنصار هذه المذاهب كلها معنا الى صدر الاسلام، لرأوا اشتراكية عادلة معتدلة ، تجمع بين الحرية والاشتراكية ، ولا تترك الغنى يلتهم الفقير ، ولا الجاهل يتساوى مع العالم ، ولا الذين يعملون مع الذين لايعملون، بل كانت اشتراكية محببة ، ضمنت السعادة والرفاهية للجميع ..

ظهرت الاشتراكية الاوربية من نحو خمسين سنة ، ورأى بعض الاقتصاديين فى ظهورها دليلا على ارتقاء البشرية ورفعتها ، فقد تعلم العالم أخيرا كيف تتضامن الطبقات لخير المجموع وسعادته . ويزعم الاقتصاديون الاوربيون أن الاشتراكية وليدة التفكير الاوربى ، ولا تعجب لزعمهم هذا ، فهم يدعون دائما ان كل رقى وليد التفكير الاوربى . الم يقولوا بأن الحرية والاخاء والمساواة من نتاج الثورة الفرنسية ؟ الم يمجدوا تلك الثورة التى أطاحت رءوسا كثيرة ، وجرت فى سبيلها الدماء انهارا ؟ متجاهلين انالحرية

والاخاء والمساواة من غرس الدين الاسلامى ، متناسين أن الاسلام هو الذى تعهد هذه المبادىء حتى نمت وترعرعت، وأظلت العالم ، أن كانوا يجهلون ذلك فها نحن أولاء نقص عليهم طرفا مما وقع فى صدر الاسلام ، قبـــــل الثورة الفرنسية بأكثر من ألف عام :

أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر ، فأقبلت فرس ، فلما رآها الناس ، قام محمد بن عمرو بن العاص فقال :

ــ فرسى ورب الكعبة !

فلما دنت الفرس عرفها صاحبها المصرى فقال :

ــ فرسى ورب الكعبة !

فقام محمد بن عمرو الى المصرى فضربه بالسوط ، وقال:

ــ خذها وأنا ابن الاكرمين

بلغ ذلك عمرو بن العاص ، فخشى ان يشـــكو المصرى ماناله لامير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحبس الرجـــل ، ولكنه انفلت من سجنه ، وأتى عمر ، فأرسل عمر الى عمرو أن يأتيه من فوره ومعه ابنه محمد ، فلما مثلا أمام أمـــير المؤمنين اعطى عمر درته للمصرى وقال له :

ــ اضرب بها ابن الاكرمين

فأخذها الرجل وضرب محمدا ، ثم طلب منه أن يضرب بها عمرو بن العاص نفسه قائلا :

ــ فو الله ما ضربك الا بفضل سلطانه

فقال المصرى : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى

فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه ، حتى تكون أنت الذى تدعه • ثم وجه الكلام الى عمرو وقال قولته المدوية ، قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ألف عام :

ــ أيا عمرو ، متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

وفى الاخاء قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (انمـــا المؤمنون اخوة) ، وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار عقب الهجرة • ومن كلامه صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه - أى لاخيه المسلم - ما يحب لنفسه)

وقال صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : (أيهـــا الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، والمسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم)

وقال صلى الله عليه وسلم في المساواة : (ان المسلمين سواسية كأسنان المشط) ، وقال تعالى فى كتابه العزيز : (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)

وقامت مشادة بين أبى ذر وبلال ، وكانت أمه أعجمية ، فعير أبو ذر بلالا بأمه ، فشكاه الى النبى ، فقال صلى الله عليه وسلم لابى ذر :

- يا أبا ذر ، ارفع رأسك فانظر ، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود ، الا أن تفضله بعمل

وقد مر عمر بمكة ، فرأى الخدم وقوفا لا يأكلون مع سادتهم ، فغضب وقال لســـاداتهم مؤنبا : « ما لقوم يستأثرون على خدامهم ! » ثم دعا بالخدم فأكلوا مع السادة فى جفان واحدة

هذه أمثلة للحرية والاخاء والمساواة فى الاسلام ، ولا احسب أن الحرية والاخاء التى جاءت بها الثورة الفرنسية تتطال الى مثل هذا ، أو تطمع فى أن تصل الى مثله •ولكنها الاغراض تلبس الباطل ثوب الحق ••

رأينا أن أوربا لم تعرف الاشتراكية الا من خمسين سنة فقط ، أما الاسلام فقد كانت الاشتراكية ركنا من أركانه لا يستقيم الا به فقد جعل الاسلام للفقير حقا معلوما من

مال الزكاة ردفا للصلاة ، قال الله تعــالى : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . لقد افترض الله على المسلمين صــدقة أموالهم ، تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم ، وفرض على الاغنيــاء دفع ٥ر٢ فى المائة مــن رءوس أموالهم كل عام ، يتسلمها بيت مال المسلمين ، ليوزعهـا على الفقراء والمساكين وابن السبيل ، كما فرض على الابل صدقة ، وعلى الغنم صدقة ، وعلى العروض صدقة ، وفى الفطر صدقة

الفرق بين اشتراكية الاسلام والاشتراكية الحديثة :

لم تقل اشتراكية الاسلام بالغاء الملكيات ، وتشــغيل الناس جميعا لحساب الحكومة ، بأجر واحد متساو ، كما قالت الاشتراكيات الحديثة . ولكنجاءت اشتراكية الاسلام مخففة من الفوارق بين الناس ، دون الالتجاء الى مصــادرة الملكيات ، لان الاسلام يعلم أن المساواة المطلقة بين الناس لا تتفق مع النواميس الطبيعية ، فكيف تساوى الجاهـل بالعالم ؟ والبليد والنشيط ؟ قال تعالى فى كتابه العزيز : (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) . لان فى وجــود الطبقات المتباينة عمار الكون . وقال عز شأنه : (هــل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وقد نص القرآن على أن كل فرد لا ينال الا بقدر سعيه : (وأن ليس للانسان الا ما سعى)

ترك الاسلام لكل انسان رأس ماله ، وترك له حــرية التصرف فيه ، لان الاسلام يعلم أن العمل هو رأس مال كل انسان بمفرده ، وهو مناط سعادة كل فرد فى نفسه ، فلو علم الفرد ان ثمرة عمله ستعود اليه ، لجد ونشط ، وعمل واجتهد ، أما اذا أيقن أنه يزرع ليجنى غيره ، ويكد ليشاركه

سواه ، فترت همته ، وقعد عن اجهاد قواه العقلية والجسمية فيما لا يجنى من ثمرته الا الكفاف

علم الاسلام كل هذا ، فلم يأت باشتراكية هدامة ، ولكن جاء باشتراكية معتدلة ، لم تقل بمساواة الناس بعضهم ببعض مساواة مطلقة ، تدعو الى التكاسل والتواكل ، وانمحاء آية التفاضل من صفحات الوجود ، ولم تترك للفرد الحرية المطلقة التى تؤدى الى استئثار طبقة من الناس بالمال والتكاثر به دون الفقراء ، بل تركت حق المالك له لا يشاركه فيه سواه ، على أن يؤدى زكاته للفقراء ، فكانت اشتراكية الاسلام ، التى شرعت من أكثر من ألف عام ، تجمع بين ما جاءت به المذاهب الجديدة .. تجمع بين ما جاء به المذهب الحر المتطرف ، والمذهب الاشتراكى المتطرف ، فجاءت اشتراكية عادلة ، لا تطرف فيها ولا معالاة

ولم يكتف الاسلام بما فرضه للفقير من مال الغنى ، بل حبب فى الانفاق ، وتوعد الذين يكنزون المال بعذاب أليم ، حتى ينفق الاغنياء مالهم على الفقراء ، فتقل الفوارق بين الناس ، قال الله تعالى تحبيبا فى الانفاق : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) . وقال يتوعد كانزى المال : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) . وقال تعالى تحبيبا فى العطاء : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره للعسرى) وقال صلى الله عليه وسلم : (ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقا خلفا ، ويقول الاخر : اللهم اعط ممسكا تلفا) . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يعود جميع المسلمين التصدق

فقال : « على كل مسلم صدقة » ، فقالوا « يا نبى الله ، فمن لم يجد ؟» قال : «يعمل بيده ، فينفع نفسه ويتصدق» قالوا : « فان لم يجد ؟ » ، قال : «يعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا : « فان لم يجد ؟ » ، قال : « فليعمل بالمعـــروف وليمسك عن الشر ، فانها صدقة »

توزيع المال فى عهد الرسول :

لما عاد النبى الى المدينة بعد فتح مكة ، واستتباب الامر له ، أوفد عشاريه ليجمعوا له عشر ايراد القبائل التى دانت للاسلام من غير أن يتعرضوا لاموالها ، واتجه كل واحد وجهته ، فتقبلتهم القبائل بالترحاب . ولما عادوا الى المدينة جعل الرسول صلى الله عليه وســـلم يوزع ما جمع على المسلمين بالتساوى ، وكان النبى يعطى الجزية وما يصالح عليه من المال لكافة المسلمين ، وكان يأخذ الخمس مما يفىء الله عليهم ، فيقوم بتوزيعه على ذوى القربى واليتـــامى والمساكين وأبناء السبيل ، فيزيد بذلك فى أنصبتهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى ذلك : (مالى مما أفاء الله عليكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم)

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم للاسلام رسولا ، وللاشتراكية اماما ، ولله در شوقى اذ يقول :

الاشــــتراكيون ، أنت امامهم
لولا دعاوى القـــوم والغلواء
داويت متئـــدا وداووا طفرة
وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعـــة
ومن السموم الناقعـــات دواء

والبر عندك ذمة وفريضـــة
لا منــة ممنونة وحيـــاء

جاءت فوحدت الزكاة سـبيله
حتى التقى الكرماء والبخـلاء

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى
فالكل فى حق الحيـــاة سواء

فلو أن انســـــانا تخير ملة
ما اختار الا دينـــك الفقراء

استمر المال يتدفق على المدينة فى عهد الرسول ، وكان عليه الصلاة والسلام يقوم بتوزيعه على الجميع بالتســاوى، فرفرفت السعادة على المسلمين ، وأحب الفقراء الاغنياء ، وجعل الاغنياء ينفقـــون على الفقراء ، لانهم تعلموا أن ما ينفقونه باق لهم عند الله ، وسيؤجرون عليه فى الآخرة . ألم يقل الله تبارك وتعالى وهو أصدق القـــائلين : (ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم)

قانون التوريث :

نجحت الاشتراكية الاسلامية فيما أخفقت فيه جميع المذاهب الاقتصادية ، نجحت فى تحبيب الفقراء فى الاغنياء، وفى تحبيب الاغنياء فى الفقراء ، وفى العمل فى القضاء على الفروق الاجتماعية دون اثارة فريق على فـــريق ، او التضحية بمصالح فريق لمصلحة فريق . ومما ساعد على ايجاد التوازن بين الطبقات قانون الميراث الاسلامى ، الذى يقضى بأن يرث ابناء الميت تركته ، فساعد هذا على توزيع الثروة على اكبر عدد ممكن ، بعكس قـــانون التوريث الانجليزى الذى يقضى بأن يرث الابن الاكبر وحده ماتركه

والده المتوفى ، مما يكدس مال الاسرة جميعا فى يد فرد واحد ، الامر الذى ينتج عنه ، الى جانب وقوع النفرة بين الاشقاء ، اختلال التوازن بين الطبقات

محاولة التحرر من الاشتراكية الاسلامية .

قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبويع ابوبكر خليفة للرسول ، وأراد بعض المسلمين أن يتحرروا من اشتراكية الاسلام بأن يمتنعوا عن تأدية الزكاة ، وقد احتج بعضهم بقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم) وقالوا : لسنا ندفع زكاتنا الا الى من صلاته سكن لنا ، يريدون بذلك الرسول ، وأنشد بعضهم :

أطعنا رسول الله اذا كان بيننا
فواعجبا ما بال ملك أبى بكر

اعتبر ابو بكر اولئك الذين يريدون التحرر من اشتراكية الاسلام بمنع الزكاة مرتدين عن دينهم ، لانهم بمنعهم الزكاة ، يقوضون ركنا من اركان الاسلام الخمسة، فعزم على محاربتهم ، فقال له عمر :

— كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه ، الا بحقه ، وحسابه على الله »

ونصحه عمر أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ، ويتألفهم حتى يتمكن الايمان فى قلوبهم ، ثم هم بعد ذلك يزكون ..

فقال ابو بكر لعمر :

ـ أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام ؟ انه قد انقطع الوحى ، وتم الدين ، أو ينقص وأنا حى ؟ والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال ٠ والله لو منعونى عناقا (عنزا) كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم على منعها

وعقد أبو بكر أحد عشر لواء لقتال هـؤلاء المرتدين ، الذين يريدون التحرر من اشتراكية الاسـلام ، فانتصر عليهم ، وأرغمهم على أن يأتوابالزكاة عن يد وهمصاغرون، وبذلك خرج المبدأ ظافرا منتصرا ، يقرر للفقير حقه على الغنى ، وللضعيف حقه على القوى ، وخرجت اشتراكية الاسلام من حروب الردة قوية مدعمة الاركان

الاشتراكية فى عهد عمر :

استمر أبو بكر يقسم الاموال التى تصل الى بيت المال بالتساوى على المسلمين كافة ، كما كان الحال فى عهـد الرسول ، ولكن لما تولى الامر عمر بن الخطاب ، رأى أن تسوية المسلمين جميعا بعضهم ببعض اجحاف بالسابقين فى الاسلام ، والمجاهدين فى سبيل الله ، فقـام يخطب الناس ، ليوضح لهم سياسته المالية الجديدة ، قال : (والله ما أحد أحق بهذا المال من احد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد الا وله فى هذا المال نصيب ، الا عبدامملوكا . ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤهفىالاسلام، والرجل وقدمه فى الاسلام ، والرجل وعناؤه فى الاسلام ، والرجل وصاحبه ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه »

احصاء الممالك ، وتدوين الدواوين :

وضع عمر فى هذه الخطبة سياسته المالـــية ، وغب انتصارات المسلمين فى فتوحات الشمال ، تدفق المال على المدينة تدفقا عظيما . ولم يكن هناك أماكن يحفظ فيها ، فكان يوضع فى المسجد ، ويقام عليه الحراس . وقدم ابو هريرة عليه من البحرين ، فقال له عمر : ماذا جئت به ؟ قال : خمسمائة الف درهم . فقال عمر : أتدرى ما تقول ؟ قال : نعم ، مئة الف درهم ، ومئة الف درهم ، ومئة الف درهم ، ومئة ألف درهم . ومئة ألف درهم . فقال عمر : أطيب هو ؟ قال : لا أدرى . فصعد عمر المنبر ، فحمــد الله ، وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير : فان شئتم كلنا كيلا وان شئتم أن نعد عدا ،فأشار بعض المسلمين ، الذين جابوا بلاد الفرس والروم عليه ، أن يدون الدواوين ، أى يكتب قوائم بأسماء النـــاس ، يوضع أمام كل اســـم رزقه الشـــهرى . قال : دونوا الدواوين . ولتنفيذ ذلك أمر عمر باحصاء جميع القبائل العربية ، فأحصيت ، ووضعت السجلات فى صـــناديق كبيرة . وقد بدأ عمر بالاقرب فالاقرب للنبى ، ثم فرض لاهل بدر ، ومن بعدهم لاهل الحديبية وبيعة الرضوان ، ثم لمن بعدهم ، ولاهل القادسية واليرموك ، وكذلك خص نساء النبى بعطاء كبير ، فأعطى أزواج النبى وعمه العباس ١٠٫٠٠٠ درهم الا عائشة فقد أعطاهــا ١٢٫٠٠٠ درهم ، لمكانتها ومكانة أبيها من الرسول ، وقد فرض ٥٠٠٠ درهم للحسن والحسين ولمن شهد بدرا ، وفرض ٤٠٠٠ درهـم لمن كان اسلامهم كاسلام أهل بدر ولـم يشـــــهدوها ، و ٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ولبعض أبنـاء المهـــاجرين

والانصار ، ولاهل مكة ٨٠٠ درهم ولسائر الناس مبالغ تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ درهم ، ولنساء المهاجرين والانصار مبالغ تتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ و ٤٠٠ و ٦٠٠ درهم ، وكان يعطى امراء الجيوش ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ٩٠٠٠ درهم بحسب الاعمال التى يقومون بها، ونفذ هذا النظام فى الامصار

ولقد خطب عمر عقب توليته فى الناس ، خطبة طويلة جاء فيها ، فيما يختص بالمال : « لكم على ألا أجتبى شيئا من خراجكم ، ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم على اذا وقع فى يدى ، الا يخرج منى الا فى حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ، ان شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم على الا ألقيكم فى المهالك ، ولا أجمركم (أحبسكم) فى ثغوركم • أماكن المخالفة بين المسلمين وأعدائهم) ، واذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم »

معارضة عمر فى تقسيم الاراضى :

استمرت الاشتراكية الاسلامية مزدهرة فى عهد عمر ، فكان يعطى كلا نصيبه المعلوم من المال الذى يتدفق على المدينة . ولما تم فتح العراق ، أشار عليه عبدالرحمن ابن عوف أن يقسم أرضها بين المسلمين ، فعارض على ابن أبى طالب وطلحة وآخرون فى ذلك • كان عمر يميل الى عدم تقسيم هذه الاراضى ، واشتد الاخذ والرد بين عمر وبين مؤيدى التقسيم ، فقال الذين يريدون تقسيم الاراضى : ان عمر يظلمنا حقوقنا . فما كان من عمر الا أن جمع خمسة من الاوس وخمسة من الخزرج ، وقال لهم :

- انى لم أزعجكم الا لأن تشتركوا فى أمانتى ، فيما حملت من اموركم ، وأنا واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى . لست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى معه ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله ان كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد الا الحق

لقد سمعتم كلام هؤلاء القوم ، الذين زعموا أنى اظلمهم حقوقهم ، وانى أعوذ بالله أن أركب ظلما ، لئن كنت ظلمتهم شيئا هولهم ، وأعطيتهم غيره ، لقد شقيت. لكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا بين أهله ، وأخرجت الخمس ، فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها ، المقاتلة والذرية ، ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور ، لابد لها من رجال يلزمونها . أرايتم هذه المدن العظام ، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لابد من أن تشحن بالجيش وادرار العطاء عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج ؟

درس المحكمون العشرة القضية ، فرأوا أن الحجج التى ساقها عمر حجج دامغة ، فهو ينظر الى الامبراطورية الاسلامية جميعها كشىء واحد ، ويعمل بما فيه مصلحتها، فاقر المحكمون رأيه ، وخالفوا المشيرين بالقسمة ، فأوفد عمر عثمان بن حنيف لمسح الاراضى ، وتقدير خراجها . ولقد تدفق خراج هذه الاراضى على المدينة ، وقسم على المسلمين . ولقد بلغ خراج الكوفة فى عام واحد مليونا من الدراهم ، وقسمت فيما قسم على المسلمين . فلو كان عمر قد اقر المطالبين بتوزيع الاراضى ، ألم تكن هذه الاموال جميعها قد ضاعت على المسلمين ؟

ميزانية الدولة الاسلامية :

الايرادات :

كانت جميع الاموال التى يحصل عليها المسلمون ترسل الى بيت مال المسلمين ، وكانت النفقات تدفع من بيت المال ، فكان بيت المال بمثابة وزارة المالية فى الدولة الحديثة ..

وكانت موارد بيت المال هى : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفىء ، والغنيمة ، والعشور ، وسنذكر نبذة عن كل منها :

الخراج :

هو : مقدار معين من المال ، أو الحاصلات ، يفرض على الارض التى صولح عليها المشركون ، ويؤخذ على الارض التى فتحها المسلمون عنوة ، أو الارض التى افاء الله بها على المسلمين ، أى التى استحوذوا عليها دون قتال ، فملكوها وصالوا أهلها على أن يتركوهم بخراج معلوم ، يؤدونه لبيت مال المسلمين .

وهناك بعض انواع من الارض لا يؤخذ عنها خراج ، بل يدفع عنها أصحابها عشر ثمارها ومحصولاتها ، وهذه تسمى الارض العشرية ومن الارض التى لا يؤخذ عنها خراج : الارض التى اسلم اهلها وهم عليها دون حرب فهذه كانت تترك لهم ، على ان يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة ، ولا يجوز بعد ذلك ، ان يوضع عليها خراج

وقد قال الماوردى فى كتاب الاحكام السلطانية : « الارضون كلها تقسم أربعة اقسام ; أحدها ، مااستأنف

المسلمون احياءه ، فهو ارض عشر ، لايجوز ان يوضع عليها خراج ، والقسم الثانى ما أسلم عليه أربابه ، فهم احق به ، فيكون على مذهب الشافعى أرض عشر ، ولا يجوز أن يوضع عليها خراج ، والقسم الثالث ما ملك عن المشركين عنوة وقهرا ، فيكون على مذهب الشافعى رحمه الله ، غنيمة تقسم بين الفاتحين ، فيملكونها ويدفعون العشر من غلتها ، وحينئذ تكون ارض عشر ، لايوضع عليها خراج ، والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون من أرضهم ، فهى الارض المختصة بوضع الخراج عليها »

وكان الخراج مقدارا من مال أو غلة ، فقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على نصف ما يخرج من الارض ، قليلا كان او كثيرا ، وقد اخذ عمر ١٤ درهما عن الفدان المنزرع قمحا

جباية الخراج :

كان الخلفاء يعينون عمالا للقيام بجباية الخراج ، فيدفعون منه أرزاق الجند ، وما تحتاج اليه المصالح العامة فى القطر المتحصل منه المال ، ويرسلون الباقى الى بيت المال ، ليصرف فيما خصص له

قانون من أين لك هذا :

لم يترك للولاة الحبل على الغارب ، ولم يترك لهم حرية التصرف فى ولاياتهم ، بل كان يرسم لهم السياسة التى ينتهجونها ، وكان يأمرهم بتوزيع الاعطيات على جميع المسلمين فى ولاياتهم ، سواء أكانوا ممن خرج من جزيرة العرب ، أم ممن اسلم ، كل بحسب ما هو مدون له .
وكان عمر يكتب أموال عماله اذا ولاهم ، ثم يقاسمهم مازاد على ذلك . وحدث ذلك مع سعد بن أبى وقاص لما ولاه الكوفة ، فانه قاسمه ماله ، وحدث مثله مع عمرو بن

العاص والى مصر ، فانه كتب اليـــه : « انه فشت لك فاشــية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، ولم يكـــن حين وليت مصر » فكتب اليه عمرو : « أن أرضنا أرض مزدرع ومتجر،فنحن نصيب فضلا عما تحتاج اليه نفقتنا» . فكتب اليه عمر : « اني قد خبرت من عمال السوء ماكفى، وكتابك الى كتاب من أقلقه الاخذ بالحق ، وقد سئت بك ظنا ، وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعه ، وأخرج اليه ما يطلبك ، وأعفه من الغلظة عليك ، فانه برح الخفاء » ، فقاسمه ماله

وربما أخذه منهـــم ، وضـــمه جميعه الى بيت مال المسلمين . ولقد حدث ذلك مع أبى هريرة لما ولاه على البحرين ..

وكانت تصرف من خراج أرض الامصار ، أعطية الجند وسائر الكلف ، فكان خراج مصر يصرف فى مصر ، وخراج الشام فى الشام ، والكوفة فى الكوفة ، وهكذا . ويحمـل ما يفضل الى بيت المال

٢ ـ الجزية :

مبلغ معين من المال ، توضع على الرءوس ، وتســـقط بالاسلام . وقد قال الله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

فرضت الجزية على الذميين ، ولا غبن عليهم فى ذلك ، فقد فرضت الزكاة على المسلمين ، وبذلك تكافأ الفريقان اللذان يعيشان فى دولة واحدة . ويقول الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية عن الجزية : « واســـمها مشتق من

الجزاء ، فيجب على أولى الامر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ، ليقروا بها فى دار الاسلام ، ويلتزم لهم ببذلها بحقين : أحدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحمـاية محروسين . وقد كانت المبالغ الآتية تؤخذ من الذميين ، وقد روعى فيها قدر كل منهم :

١ ــ أغنياء ، ويؤخذ منهم ٤٥ درهما

٢ ــ متوسطو الحال ، ويؤخذ منهم ٢٤ درهما

٣ ــ فقراء يتكسبون ، ويؤخذ منهم ١٢ درهما

٤ ــ ولا تؤخذ جزية من مسكين فمن يتصدق عليه ، ولا ممن لاقدرة له على العمل ، ولا من الاعمى أو المقعد او المجنون ، ونحوهم من ذوى العاهات . ولا تجوز الجزية الا على الرجال الاحوار العقلاء ، ولا تجب على امراة أو صبى ..

من هذا يتضح أن الخراج على الارض ، ولا يسـقط بالاسلام ، أما الجزية فعلى الرءوس ، وتسقط بالاسلام

٣ ــ الزكاة :

فرض الله الزكاة على المسلمين لتعطى للفقراء ، فقـال فى كتابه العزيز : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) . وقد فرضت الزكاة على الذهب والفضة ، فعلى كل مسلم أن يخرج ٢٫٥٪ مما يملك زيادة على النصـاب ونصاب الذهب عشرون مثقالا ، وهذا حوالى ١٢ جنيهـا بالعملة المصرية ، ونصاب الفضة مائتا درهم ، وهـذا حوالى ٦ جنيهـات مصرية . وفرضت زكاة على الابل بشروط ، وعلى عروض التجارة بشروط ، وعلى الزرع والثمر بشروط . ولا مجال لذكر ذلك هنا ، أما أوجـه صرف الزكاة ، فسنذكرها عند الكلام على المصروفات

٤ ـ الفيء :

هو مال وصل الى المسلمين من المشركين عنوة بلا قتال ، وقد نص الله تعالى على طريقة تقسيمه فى هذه الآية : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل) . وكان الرسول يأخذ خمس الفيء ، يقسمه على ذوى قرباه ، وأهل بيته ، والمسلمين ، وتقسم أربعة أخماس الفيء الباقية على الجند ، الى ان دون عمر الدواوين ، وحدد لكل عطاءه

٥ ـ الغنيمة :

عقب انتهاء غزوة بدر ، بدأ المسلمون يتساءلون عن الغنيمة لمن تكون ؟ قال الذين جمعوها : « نحن جمعناها فهى لنا » . وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته : « نحن والله أحق ، فلولانا لما أصبتموها » . وقال الذين كانوا يحرسون النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم ولا هم أحق منا ، وكان لنا أن نقتل العدو ، ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه ما يمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله كرة العدو ، فقمنا دونه » ، فأمر النبى الناس برد كل ما فى أيديهم من الغنائم ، وأمر أن تحمل الى أن يرى فيها رايا ، او يقضى فيها الله بقضائه ، فنزلت الاية: (وأعملوا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه)

قال الشافعى فى الغنيمة « كل ما حصل من الغنائم من اهل دار الحرب ، من شيء قل او كثر ، من ارض أو متاع أو غير ذلك ، قسم ، الا الرجال البالغين فان الامام مخير أن يمن ، أو يقتل ، أو يسبى

٦ ـ العشور :

قال صاحب صبح الاعشى : « المقرر فى الشرع أخذ العشر من بضائع تجار الكفار ، التى يقدمون بها من دار الحرب الى دار السلام ، اذا شرط ذلك عليهم » ، فكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر ، الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد اخرى ، وهذا النظام هو المعروف الآن بالضرائب الجمركية

المصروفات :

١ ـ كانت أعطيات الجند فى عهد النبى غير محدودة ، فكانوا يأخذون نصيبهم من أربعة اخماس الغنيمة ، الى أن ولى عمر ، فدون الدواوين ، وحدد لكل اعطيته كما راينا سابقا

٢ ـ وكانت الزكاة تصرف على الفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، وذلك بحسب نص الآية : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم) . وقدسبق أن بينا أوجه صرف الفىء عند الكلام عن الفىء

٣ ـ وكانت الغنيمة توزع على الجيش المحارب ، بعد اخراج الخمس للنبى ، وقد فاضل صلى الله عليه وسلم بين الفارس والراجل ، فأعطى الفارس سهمين ، واعطى الراجل سهما واحدا . وقد قال الله تعالى فيما يختص بالغنيمة : (واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل)

٤ ــ وكان يدفع لكل مولود فى الاسلام مبلغ من المــال من بيت مال المسلمين ، كما سيرد بعد حين

٥ ــ وكان يصرف من بيت المال على مثــــل رى الترع وحفرها للزراعة ، وكانت نفقات المساجين ، والمرضى من الذميين ، وأسرى المشركين : من مأكل ، ومشرب ،وملبس، ودفن من يموت منهم : من بيت مال المسلمين

٦ ــ وكانت المعدات الحربيــــة ونحوها تدفع من بيت مال المسلمــــين

٧ ــ واعطيات المؤدبين والمدرسين والعلماء كانت تدفــع من بيت مال المسلمين.

هذه صورة مصغرة لابواب ميزانية الدولة الاسلامية ، وهى لا تختلف كثيرا عن ميزانيات الدول فى القرن العشرين

المسنون ، والمواليد ، والمرضى المتبطلون :

رأى عمر شيخا ضريرا يسأل على باب ، فلما علم انه يهودى قال له : ما ألجأك الى ما أرى ؟ »

ــ أسأل للجزية والحاجة والسن

فأخذ عمر بيده ، وذهب به الى منزله ، فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأسل الى خازن بيت المــال يقول :

ــ أنظر هذا وضرباءه ، فوالله ما انصفناه أن أكلنــــا شبيبته ، ثم نخزه عند الهرم ، (انما الصدقات للفقراء والمساكين) ، وهذا من مساكين أهل الكتاب

ووضع عمر عنه الجزية ، وعن ضربائه

لم يشأ عمر ان يأكله شابا ، ثم يخزه اذا كبر ، مع علمه انه يهودى لايدين بدينه ، فماذا عمل عمر المسلمين الذى قعدت بهم السن ؟ انه لاشك أجرى عليهم ما يكفيهــم من بيت المــــال

لم يكتف عمر بحماية المسنين، بل فرض لكل مولود مئة

درهم من بيت المـال ، ولذلك قصة لا بأس من سردها :

سمـع عمر بكاء صبى ، فتوجه نحوه ، فقال لامه :

ـ اتقى الله ، واحسنى الى صبيك

ثم عاد الى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد الى أم الصبى . فقال لها مثل ما قال أولا ، ثم عاد الى مكانه ، فلما كان اخر الليل سمع بكاءه ، فأتى أمه فقال لها :

ـ ويحك ، انى أراك أم سوء .. مالى أرى ابنك لايقر منذ الليلة ؟ ..

ـ ياعبد الله ، قد ابرمتنى منذ الليلة ، انى أريغه عن الطعام ، فيـأبى

ـ ولم ؟

ـ لان عمر لا يفرض الا للفطم

ـ وكم له ؟

ـ كذا وكذا شهرا

ـ ويحك تعجلينه

ثم صلى الفجر ، فلما سلم قال : « يا بؤسا لعمر ، كم قتل من اولاد المسلمين » ثم أمر مناديا فنادى : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام

ولما سافر عمر الى دمشق ، مر فى الارض بقوم مجذمين من النصارى ، فأمر ان يعطوا من الصدقات ، وان يجرى عليهم القوت

مشروع بيفردج ليس بجديد على الاسلام :

وسعت اشتراكية عمر المتعطلين ، كما وسعت المسنين ، وفرض للاولاد من بيت مال المسلمين ، كما أمر بعلاج المرضى ، واجرى القوت عليهم ، ورصد الارزاق على معلمين يربون الصغار . وهذه اشتراكية عمر ، ثانى الخلفاء الراشدين ، قامت بما لم تقم به أرقى الدول فى القرن العشرين

لقد حاولت انجلترا ، وهي أرقى دولة فى الخـــدمات الاجتماعية ، أن ترفه عن الفقراء بها ، فعجزت عن أن تصل الى ما وصل اليه الاسلام فى عهد عمر

الم يقدم السير بيفردج مشروعا الى البرلمان الانجليزى اهتزت له أسلاك البرق فى انحاء المعمورة ، لمـا احتواه من ترفيه عن الفقراء وتأمين اجتماعى لجميع الرعايا البريطانيين؟ ان الناظر الى الجدول الاول من مشروع التأمين الاجتماعى فى تقرير « بيفردج » ، يجده قد اشتمـل على مايعطى للمتبطلين والمسنين والارامل ، وما يعطى فى حالة الولادة والدفن والعلاج الطبى . ان هذا جميعه عالجه عمر، وفرض له من بيت مال المسلمين

***

لمـا مزق المسـلمون ملك كسرى ، حملوا نفائسـه الى المدينـة ، وقال عبد الله بن الارقم لعمر : اجعلها فى بيت المـال ، حتى نقسمها

فقال عمر : والله لا يظلها سقف بيت دون السماء

فطرحت بين صفتى المسجد ، صفة النساء ، وصفـة الرجال ، وطرحت عليها الانطاع ، وباتوا عليها يحرسونها، فلما أصبح ، كشف عمر عنها ، فرأى الذهب والفضة ، فبكى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :

ــ ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ان هذا اليـوم ليوم شكر ، ويوم فرح وسرور

فقال عمر : لا والله ، مافتح الله على قوم هذا قط ، الا جعل بأسهم بينهم ، والقيت بينهم العداوة والبغضاء

وقام عمر وقسم الغنائم بين المسلمين ، ولقد كان عمـر صادق الفراسة عندما قال مقالته ، فان هذا المال المتدفق أوغر صدور المسلمين بعضهم على بعض ، وابتدأت العداوة والبغضاء فى عهد خلفه عثمان بن عفان

ولقد قال عمر فى أخريات أيامه : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء ، فقسمتها على الفقراء » ، ولكن عمر قتل قبل أن ينفذ هذا ، ومات عمر واشتراكية الاسلام فى أوج مجدها وعظمتها ..

اشتراكية الاسلام بعد عمر :

تولى أمر المسلمين بعد عمر عثمان بن عفان ، وكان ورعا تقيا ، ولكن لم يكن له حزم عمر ، وكان به لين لبنى أمية عشيرته ، فأعطى خيبر لمروان بن الحكم ، وكان النبى قد ترك خيبر فيئا للمسلمين ، وظلت كذلك فى عهد أبى بكر وعمر ، واعطى مروان خمس خراج افريقية كذلك ، وترك لمعاوية خراج الشام فاحتجنه ، ولم يوزعه على المسلمين ، فقام ابو ذر الغفارى صاحب رسول الله ، وكان فى الشام يناوىء «معاوية» وثار فى وجهه ، فكان ابو ذر أول ثائر اشتراكى فى العالم ، وقد سردنا تاريخ حياته فى كتابنا هذا

كانت سياسة عثمان المالية ومحاباته لبنى أمية سبب غضب الناس عليه ، فقتلوه ، وبويع على بن أبى طالب خليفة للمسلمين ، فعاد الى النظام الذى كان متبعا أيام النبى وأبى بكر وعمر ، فقسم الاموال على الناس كافة ، ولكن ناوأه معاوية فى الشام ، وقامت الحروب بين المسلمين ، حتى استتب الامر لمعاوية ، فانقلبت الخلافة الى ملك له جميع مظاهر الملك ، وانقلبت الحال من تقشف وقناعة ، الى عظمة وفخامة ، واقبال على الدنيا ، فصرفت الاموال على مظاهر الملك وأبهته ، وترك المسلمون ، فضعفت اشتراكية الاسلام فى دولة بنى أمية ، الى أن ولى الحكم عمر بن عبد العزيز ، فأعاد اليها عظمتها ، ورد حقوق المسلمين التى اغتصبها أسلافه الى أصحابها ، وعادت الحال فى زمانه الى ما كانت عليه أيام جده العظيم، عمر بن الخطاب

اشتراكية الاسلام فى عهدها الزاهر :

شيع عمر بن عبد العزيز سلفه سليمان الى مقره الاخير، ولما خرج من قبره ، أقبل ركب الخليفة ، فرأى خيلا وبراذين وبغالا مطهمة ، لكل دابة سائس ، فقال :

ـ ما هـذا ؟

ـ مواكب الخلافة ، يركبها الخليفة أول ما يلى

ـ دابتى أوفق

والتفت الى مزاحم تابعه ، وقال :

ـ يا مزاحم ، ضم هذه الى بيت مال المسلمين

وفعل ذلك بالسرادقات ، والحجر التى نصبت له ، فضمها الى بيت مال المسلمين ، ولما بلغ منزل الخلافة ، قال أولاد سليمان له :

ـ هـذا لك ، وهذا لنا

ـ وما هـذا ؟ وما هذا ؟

ـ هذا ما لبس الخليفة من الثياب ، ومس من الطيب ، فهو لولده ، وما لم يمس ، فهو للخليفة من بعده ، هو لك

ـ ما هذا لى ، ولا لسليمان ، ولا لكم ، ولكن يا مزاحم ضم هذا كله الى بيت مال المسلمين ..

تلفت عمر حوله ، فألفى نفسه قد ورث عن أبيه ضياعا وأموالا ، وجعل يفكر فى كيفية حصول أبيه وآل بيته على تلك الضياع الواسعة ، فأيقن أن ما جمعه أبوه وآل بيته، لم يكن بالطرق المشروعة ، فعزم على التخلص مما ورثه ، ورده على من أخذ منه ، فقال لمزاحم :

ـ يا مزاحم ، ان هؤلاء القوم قد اعطونا عطايا ، والله ما كان لهم أن يعطونا اياها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وان ذلك قد صار الى ، وليس على فيه دون الله محاسب

ـ يا أمير المؤمنين ، هل تدرى كم ولدك ؟

ـ أكلهم الى الله

وأمر عمر مناديه أن ينادى : الصلاة جامعة ، ثم خرج الى المسجد والناس مجتمعة ، وقال لهم : ان أهله قد أقطعوه مالم يكن له أن يأخذه ، ولا لهم أن يعطوه، واخبرهم انه قد بدأ بنفسه واهل بيته ، فرد ما تحت يده الى بيت مال المسلمين

خرج عمر عما تحت يده من قطائع وضياع ، فحرق سجلاتها ، وبقيت مزرعتا خيبر والسويداء ، ولما علم ان خيبر كانت فيئا للمسلمين أيام النبى ، حرق سجلاتها، واعادها فيئا كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابقى مزرعة السويداء اذ كان قد استنبطها بعطائه

ابتدأ عمر عهده باحراق سجلات الضياع التى اغتصبت من المسلمين ، وقطع الجوائز والمرتبات الباهظة ، التى كانت تصرف لبنى أمية فى عهود الخلفاء السابقين ، واجرى عليهم مرتبات تتناسب مع ما يحصل عليه سائر المسلمين

ودخلت عليه عمة له تعاتبه على قطع ما كان يجريه عليها أسلافه من عطايا ، فوجدت بين يديه أقراصا وشيئا من ملح وزيت وهو يتعشى ، فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين ، أتيت لحاجة لى ، ثم رأيت أن ابدأ بك قبل حاجتى

ـ وما ذاك يا عمة ؟

ـ لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا ؟

ـ ليس عندى يا عمة ، ولو كان عندى لفعلت

ـ يا أمير المؤمنين : كان عمك عبد الملك يجرى على كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليد فزادنى ، ثم كان أخوك سليمان فزادنى ، ثم وليت أنت فقطعته عنى

ـ يا عمة : ان عمى عبد الملك ، وأخى الوليد ، وأخى سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك

المال لى فأعطيكه ، ولكنى أعطيك من مالى ان شئت

ـ وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

ـ عطائى مئة دينار ، فهل لك ؟

ـ وما يبلغ منى عطاؤك ؟

ـ فلست أملك غيره يا عمة

لم يخرج عمر بن عبد العزيز المال الا فى حقه ، فكان لا يحابى أهل بيته ، ولا يعطى أقاربه ، ولا يبذر العطايا فى الاتباع والاذناب ، بل كان يبذل كل جهده فى زيادة مال بيت المال ، فزاد تبعا لذلك فى أرزاق النـــاس ، وازدهرت اشتراكية الاسلام ، ولم يعد فى دولة عمر بن عبد العزيز فقراء ، كما سترى بعد حين .

وجاء عنبسة بن سعيد بن العاص يريد ان يكلم عمر فى عطية قدرها عشرون ألف دينار ، كان قد أمر بها سليمان ، ولم تصرف له بعد ، وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز ، فدخل عليه وقال :

ـ يا أمير المؤمنين : ان أمير المؤمنين سليمان كان قد أمر لى بعشرين ألف دينار ، حتى انتهت الى ديوان الختم ، ولم يبق الا قبضها ، فتوفى على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندى ، وما بينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان

قال عمر : كم ذلك ؟

ـ عشرون ألف دينار

ـ عشرون الف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها الى رجل واحد ؟ والله ما لى الى ذلك من سبيل

وقد استاء بنو أمية من عمر بن عبد العزيز ، لانه قطع عنهم مرتباتهم الضخمة ، وقد بلغه أن يزيد بن عبد الملك قال ساخطا : « كانه يظن انى لا اكون من بعده » ، فأرسل عمر الى بنى أمية الواقفين ببابه ينتظرون الاذن ليكلموه فى

أمورهم : « ان عمر يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : أقسم بالله الذى لا اله الا هو ، ما زلت هذه الليلة الماضية ساهرا أناجي الله واستغفره ، حيث أعطيتكموها دون المسلمين، فلا والله ، لا اعطيكم درهما الا أن يأخذ جميع المسلمين ؛ وأما أنت يا يزيد ، فاذا وليت فشأنك بها »

ازداد سخط بني أمية ، وضجوا من الفقر الذى أوصلهم اليه عمر بن عبد العزيز ، فاجتمعوا اليه وقالوا : « انك قد أخيبت بيت مال المسلمين ، وافقرت بني أبيك فيما ترد من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كان منهم ، واشتغل أنت وشأنك ، واعمل بما رأيت»

فقال عمر : « ولكنى أرى ذلك ، والله لوددت الا تبقى فى الارض مظلمة الا رددتها ، على شرط ألا أرد مظلمة الا سقط لها عضو من اعضائى ، حتى يكون مع رد آخر مظلمة منها خروج نفسى معها .

لقد كان حكم عمر بن العزيز نقمة على الظالمين ، ورحمة على الفقراء والمساكين . ولقد استطاع عمر بن عبد العزيز ان يوفر الخير لكل جائع ، وان يضمن العدل لكل مظلوم ، وكان المال يتدفق على بيت مال المسلمين ، والاموال تجبى للدولة من الامصار فى مختلف بقاع الارض ، حتى امتلأ بيت المال وتضخم .

وكان عمر يستطيع ان يوسع على نفسه وأهله ، دون ان يضر بيت المال شيئا ، ولكنه حرم على نفسه أن يتقاضى درهما واحدا من أموال المسلمين ، بل تنازل كما رأينا عن أملاكه ، وضمها الى بيت المال ، لتوزع على السائل والمسكين وابن السبيل ، وكان يقتر على نفسه ليوسع على غيره ، ويقتطع من أهله ليصل أفراد شعبه . كان يحرم الاغنياء ليعطى الفقراء ، لقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، حتى لم يعد فى دولته فقراء ، وحتى أصبح الرجل يخرج

بزكاته ، ليعطيها الفقراء ، فما يلبث أن يعود بها ، لايجد من يأخذ زكاته ، وفى ذلك يقول يحيى بن سعد :

ـ بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيهم اياها ، فلم نجد بها فقيرا ، ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز ، دخل الذميون فى الاسلام ، فقلت الجزية تبعا لذلك ، فكتب اليه عامل له فى مصر : « ان أهل الذمة قد أسرعوا الى الاسلام ، وكسروا الجزية ، حتى استلفت من الحارث بن ثابت عشرين ألف دينار لاتم بها عطاء أهل الديوان » ، وطلب والى مصر الى عمر ، أن يأمر بوقف الذميين عن انتحال الاسلام ، فأجاب عمر : « لقد وليتك أمر مصر ، وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فان الله انما بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا » .

وكتب اليه عامله فى العراق عدى بن أرطأ : « ان الناس قد كثروا فى الاسلام حتى خفت أن يقل الخراج » ، فكتب اليه : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب يدنا »

قل الخراج بدخول الناس فى الاسلام ، ولكن بقيت الزكاة اشتراكية الاسلام الحقة ..

***

هذه صورة اشتراكية الاسلام فى زمن عمر بن عبد العزيز تكاد تظهره كأسطورة من الاساطير فى زمننا هذا ..

هذه صورة اشتراكية الاسلام زاهية ساطعة ، فهل بلغ مذهب من المذاهب الاقتصادية هذا المبلغ ؟ وهل يطمع

مذهب من المذاهب فى أن يصل الى هذا ، هل يطمـــــع مذهب من المذاهب فى القضاء على الفقر قضاء مبرما ؟ كلا والله ، ان غاية ما يطمع فيه مذهب من المذاهب هـــــو التخفيف بعض الشيء من ويلات الفقر ، لا القضاء عـلى الفقر كما قضت اشتراكية الاسلام فى عهد عمر الزاهر

زيادة الاعطيات ، والغاء السخرة ، وانشاء مطاعم الشعب:

شمل عدل عمر الناس كافة ، فأبطل السخرة ، وزاد الناس أموالا وخيرات ، وأمر عامـله فى مصر بالزيادة فى أعطيات الناس عامة ، وجعل للفلاحين عشرات الالوف من الدنانير . وقد شمل عطفه المرضى وذوى العاهات ، فأمر باعطائهم ، كما أمر بانشاء مطاعم للفقراء ، واوصى الا يصيب من طعامها الا من طبخ لهم

وقد بلغ عمر ان بعض اولاده اتخذ خاتما ، واشــترى له فصا بألف درهم ، فكتب اليه : « اما بعد فقد بلغنى انك اشتريت فصا بألف درهم ، فبعه واشبع به ألف جائع ، واتخذ خاتما من حديد ، وأكتب عليه : « رحم الله أمـرأ عرف قدر نفسه »

الاشتراكية فى أيام عمر بن عبد العزيز اشتراكية مثالية :

لقد كان عمر بن عبد العزيز مسلما تقيا ، يخشى الله فى سره وعلانيته • فكان يقول لزوجته : « يافاطمة، انى أخاف النار ، يا فاطمة انى أخاف ان عصيت ربى عـــــذاب يوم عظيم » ، فكان مثال الحـــاكم المســلم التقى الذى طبق تعاليم الاسلام كما أنزلت ، لا تبديل ولا تحريف ، ولاظلم ولا جور ، بل أحقاق للحق ، ورد المظالم الى أهلها ، وبـر بالفقراء والمساكين ، فجاءت حكومته مثلا أعلى للحـــكومة

الاشتراكية ، التى شرعها الاسلام لسعادة البشر ورفاهيته

اشتراكيـــة الاســـلام المعنوية :

وبجانب هذه الاشتراكية المادية المحببة ، جاء الاســـلام باشتراكية معنوية ، لا تقل عنها عظمة وأثراء فقد كان غرض اشتراكية الاسلام المادية ، ازالة الفروق المالية بين المسلمين، أما هدف اشتراكية الاسلام المعنوية ، فهو ازالة الفـروق الاجتماعية بينهم . شرع الدين الاسلامى الصلاة ، فاشترك المسلمون جميعهم ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهم ومحكومهم ، فى القيام بحركات واحدة ، من قيام وركوع وســـجود ، فأشعرهم انهم جميعا متساوون أمام الله . وشرع صلاة الجماعة ، فاجتمعوا جميعا ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهـم ومحكومهم ، فى مكان واحد ، يقف فقيرهم بجوار غنيهم ، بل قد يتقدم الفقير فيقف فى الصفوف الاولى ، ويتأخـر الغنى فيقف فى الصفوف الاخيرة ، فألف ذلك بين قلوبهم ، وأزال ما بينهم من فوارق اجتماعية ، وأشعرهم جميعـا أنهم سواسية امام الله . وشرع الدين الاسلامى الصوم، فصام المسلمون جميعا ، غنيهم وفقـيرهم ، حاكمهـــم ومحكومهم ، فجاع الاغنياء كما جاع الفقراء ، واحسوا فى صومهم بما يحس به الفقراء فى حياتهم ، فرقت لهم قلوبهم، فأجروا عليهم الصدقات مما رزقهم الله، فساعد هذا البذل على ازالة الفوارق الاجتماعية بين الناس

وشرع الدين الاسلامى الحج ، وأوجب خلع الثيـاب ، فخلع المسلمون جميعهم ثيابهم ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهم ومحكومهم ، ولبسوا جميعهم ثياب الاحرام، فزالت الفوارق بينهم ، واصبحوا جميعا حجاجا متســـاوين ، لا تمييز ولا تفضيـــل

كانت الزكاة اشتراكية الاسلام المادية ، وكانت الصلاة والصوم والحج والعمرة من اشتراكية الاســـلام المعنوية

ولقد نجحت اشتراكية الاسلام المادية فى محو الفقر ، والقضاء عليه ، كما نجحت اشتراكية الاسلام المعنوية فى القضاء على الفوارق الاجتماعيـــة ، واحلال المســـاواة بين النـــاس

هذه هى اشتراكية الاسلام الحقة ، فهل يتطال اليها ، او يطمع فى أن يبلغ بعض ما بلغته ، مذهب من المذاهب الاقتصادية ؟ اللهم لا ، فمتى كانت القوانين الوضعيـــة تتسامى الى وحى السماء ؟

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد النخلة سكاف

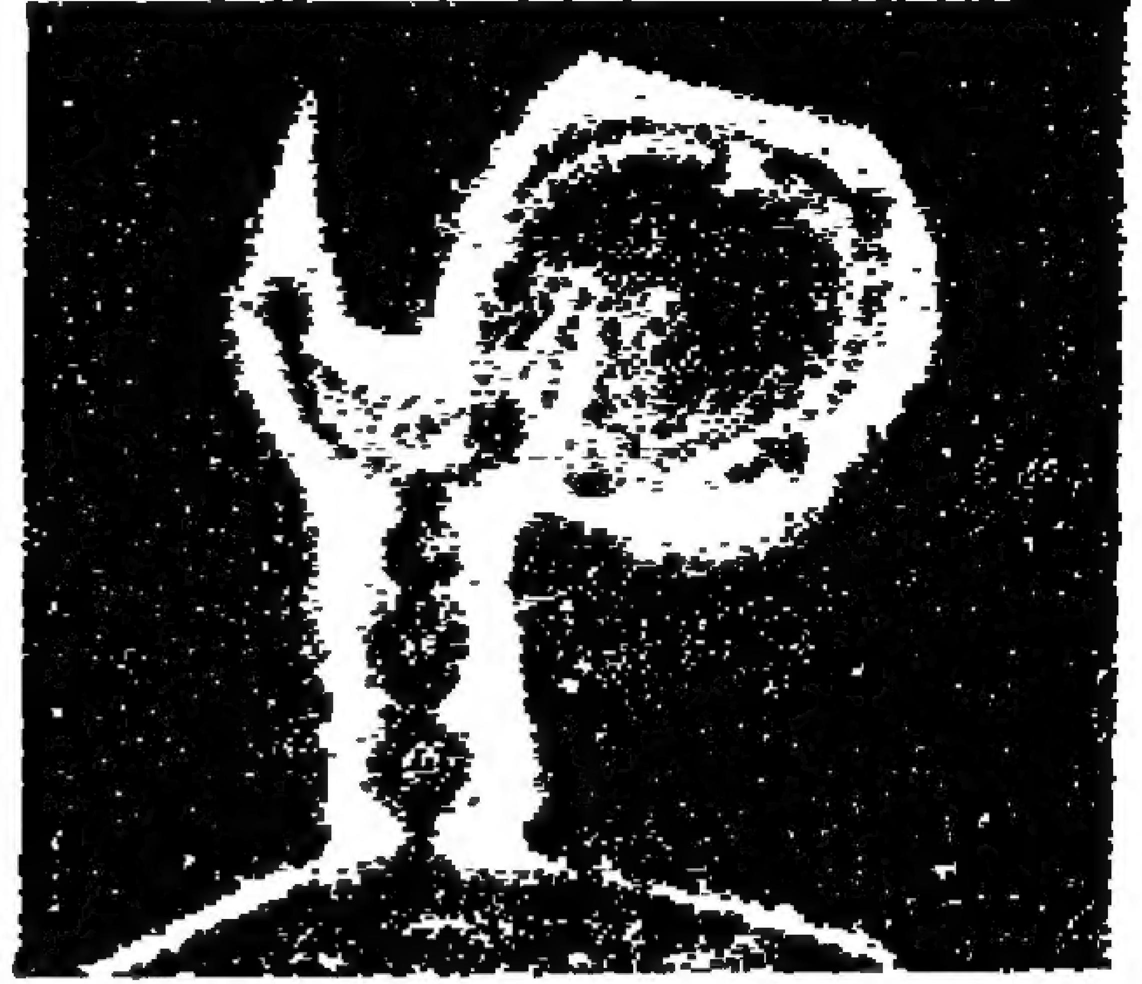
جـدة : السيد هاشم بن على نحاس – ص·ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد – ص·ب ٢١

البرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao, Paulo, BRAZIL

سنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Semit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



هذا أول كتاب يكتب عن الصحابى الجليل « ابى ذر الغفارى » صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أوصى الرسول أبا ذر أن يقول الحق ولو كان مرا وأن لا يخشى فى الله لومة لائم ، فلما قبض الرسول وانقضى عهد ابى بكر وعمر وكثرت الاموال فى أيام عثمان قام ابو ذر يهاجم كنز الاموال ويبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بعذاب أليم

وقد كان ابو ذر اول من هاجم الاغنياء فى الاسلام وأول من دعا الى حق الناس فى أموال الدولة ، فكان الاشتراكى الاول الذى أراد ان يسوى فى الاموال بين الجميع

وان هذا الكتاب يقص قصة هذا الصحابى الجليل فى تفصيل وقصة كفاحه فى سبيل توزيع الاموال على الناس بالسواء

وفى الكتاب بحث عن الاشتراكية فى الاسلام ، وهو اول بحث كتب فى اللغة العربية يربط بين الاسلام والاشتراكية ، وقد ظل هذا الكتاب منذ أن كتب حتى الان المرجع الاول للباحثين عن اشتراكية الاسلام .. اما مؤلف الكتاب عبدالحميد جودة فهو أحد كبار كتابنا المعروفين باتجاههم الفنى ، وبدراساتهم الاسلامية التى تمتزج فيها الحقائق العلمية بالاحساس الفنى الجميل .. والسحار يكتب الان بهذا الاسلوب الفنى العلمى تاريخ الاسلام فى عشرين جزءا صدر منها جزآن ..